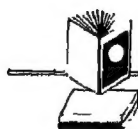




د. بشكر مصطفى

الاندلس في التصانح



مَنشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية

دمشق ١٩٩٠

التاريخ السابق وفتح

الأندلس ، حلم حلمت به الأرض الأسبانية فترة من الزمن ثم أنقضى تاركاً في الأجواء بقايا عطره السحري وأريج الذكريات . وتاريخ الأندلس جزء من التاريخ العربي أقامه العرب في أقصى الأرض المعروفة قبل ألف وثلاثمائة سنة فاستمر ثمانمائة سنة قبل أن تطفئه القوى التي تحالفت ضده ، لتجعله مجرد ذكرى ... « فللناس منها الصدى المسكر » !

وإذا اعتاد العرب أن يذكروا الأندلس بنوع من الحنين والاعجاب فلأنها كانت في التاريخ العربي ذات لون خاص ذهبي السمات ، رفاف التراث . عبرت فيه العبقرية العربية عن أبدع ماعرف حتى عهدها من الفنون والفكر والعمران . كانت للأندلس حضارتها المشتقة من الحضارة العربية بلى ! ولكنها ظلت تتميز على الدوام بطابعها الخاص الذي تمتاز فيه عبقرية الفكر بجمال البيئة وتسامح المجتمع المنفتح وشيء من الغنائية غير قليل !

كانت الأندلس آخر الفتوحات العربية في الغرب . وقد تميز فتحها بأنه كان أول دخول للعرب إلى القارة الأوروبية . كما أنه كان

انعطافاً في الفتح من الغرب الذي يعترضه المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) إلى الشمال ، بلاد الفرنجة . وكان إلى هذا وذاك آخر موجات الفتوح العربية في الغرب بعد أن تناعت الدار بين تلك الارضين وقاعدة العرب في الجزيرة العربية .

وكلمة الأندلس ليست عربية . لقد اشتقها العرب من كلمة فاندالوسيا ، وهو اسم مأخوذ من قبائل الفاندال الجرمانية التي استقرت في تلك المناطق الجنوبية من اسبانيا بعد هجرة طويلة من سواحل بحر الشمال وأعطت اسمها إلى تلك البقاع قبل أن يطردها القوط من هناك فتنقل إلى شمالي افريقيا حيث أقامت دولة هزمها البيزنطيون فذابت مع أهلها في الخليط السكاني البربري - الروماني الفينيقي الموجود يومذاك في تلك البقاع .

أطلق العرب ، أول الأمر ، اسم الاندلس على اسبانيا الاسلامية جميعاً وعلى الجزيرة الايبيرية كلها حين سيطروا على معظمها . ثم تقلص هذا الاسم تدريجياً مع تقلص الواقع السياسي حتى صار لا يدل على أكثر من الجنوب الاسباني ثم أضحى في النهاية مرادفاً لمملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة الايبيرية واستمر كذلك حتى ما بعد سقوط هذه المملكة مطلع سنة ١٤٩٢ والى اليوم .

واسبانيا أو شبه الجزيرة الايبيرية : (ويسمىها العرب بالجزيرة أيضاً كما يسمون شبه جزيرة العرب بالجزيرة العربية) تقع في الجنوب الغربي من أوروبا وتسد البحر الأبيض المتوسط من الغرب حاجزة بينه وبين المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) وإذا كانت عقدة جبال

بيرنه (البرانس أو البرتات كما يسميها العرب) تربط ماين أوروبا بين اسبانيا في شمالها بالمرات التي تقطعها فانها في الوقت نفسه تحول بينها وبين الانفتاح الكامل على أوروبا فهي في شبه عزلة عنها . ويقوم بحر المتوسط والمحيط الأطلسي في شرقها وغربها أما في الجنوب فيفصلها من البر الأفريقي المغربي ممر مائي ضيق ، قريب الاجتياز . وضيقه هو الذي ربط بين هذه الأرض المربعة الشكل وبين البر المغربي في كثير من العصور . وأعطى اسبانيا ذلك اللون الخاص في تاريخها الحضاري .

وتضاريس شبه الجزيرة الايبيرية تشبه تضاريس المغرب أكثر كثير من شبهها بأوروبا فهي جبال وهضاب تسير من الشرق إلى الغرب تقطعها الوديان التي تسير فيها انهار اسبانيا بالاتجاه نفسه تماماً كما في جبال الأطلس ووديانها في المغرب . حتى كأن بحر العدو أو الزقاق يس أكثر من واد عميق من هذه الوديان المتوازية . وجبال البرتات شبه في تكوينها جبال الأطلس وجبال الثلج (سييرا نيفاذا Sierra Nevada) و جبال شلير كما يسميها العرب) حول غرناطة تشبه جبال الريف . سهول الأندلس الجنوبية تحكي سهول المغرب المطلة على الأطلس .. هذه الملامح الجغرافية زادت في تقارب اسبانيا من المغرب وفي الفصل بينها وبين باقي أوروبا .

ويتقارب البران المغربي والاسباني عند المضيق المعروف اليوم اسم مضيق جبل طارق . وهذا الجبل يقع في أقصى جنوب اسبانيا هو ليس بكبير الارتفاع ويأخذ في عيني الناظر إليه من المغرب شكل

سرج الحصان (١) وأعلى قمته لا يتجاوز ٤٣٨ متراً وقد عرف في التاريخ القديم بأسماء عديدة منها الاسم الفينيقي Mons Calpe أو الجبل المجوف بسبب وجود مغارة كبيرة فيه سماها الاسبان فيما بعد بمغارة القديس ميخائيل San Miguel كما سماه العرب غار الاقدام . ولما كان هذا الجبل يرتفع كالصخرة فوق المضيق فقد سماه العرب بالصخرة أيضاً، وبفرضة المجاز ، وجبل الفتح ، وجبل طارق وهو الاسم الذي ثبت له وما يزال يسمى به إلى اليوم gibraltar في مختلف اللغات . نسبة إلى فاتح الأندلس طارق بن زياد .

والمضيق الفاصل بين البرين كان يعرف في القديم بأعمدة هرقل . فقد نسج الاغريق له اسطورة تقول إن البطل الاسطوري هرقل هو الذي فصل ، بقوته الخارقة ، البرين عن بعضهما ليصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي . وكان هذا الممر البحري يعتبر نهاية العالم بالنسبة للناس ، يومذاك . وقد سماه العرب اسماء مختلفة منها مضيق المجاز ، وخليج الزقاق ، والبحر الزقافي ومضيق جبل طارق وبحر العذوة أو العذوتين . ولا يجاوز طوله ٨٠ كم وعرضه في أضيق جنباته ١٥ كم ويمكن أيام الصحو أن يرى الناظر أحدث شاطئيه من الشاطئ الآخر عند سبتة . وقد نجم عن هذا الضيق تأثيران متعاكسان ففي حين نشأ صراع تقليدي دائم بين البرين المتجاورين للسيطرة على المنطقة المحيطة

(١) هو التشبيه الذي ذكره له المؤرخ الاندلسي ابن سعيد المغربي حين أقبل من سبتة نحو البر الأندلسي مع والده فقال انوالد : أجز :

أنظر إلى جبل الفتح راكباً متن لج

فقال : وقد تفتح مثل الأفنان في شكل سرج (المقري : نفح العليب ج ١ ص ١٥١-٢) .

بالمضيق سواء من جهة البر الاسباني أم البر المغربي باعتبار أن أحدهما منطقة أمان للآخر، نرى بالمقابل أن كلاهما كان امتداداً للآخر في الدم والصلات التاريخية، وفي التكوين الجغرافي والجيولوجي والانثروبولوجي، وفي الشأن الاستراتيجي، وفي الأبعاد الاقتصادية والعسكرية والثقافية. حتى أن الأوروبيين قد لا يعتبرون ما وراء جبال البيرنه إلى الجنوب جزءاً من أوروبا .

وإذا تجاوزنا العصور الانثروبولوجية القديمة وعهود السلف وجدنا أن علاقات اسبانيا الجنوبية خاصة مع بلاد شرقي المتوسط تعود إلى العهود الفينيقية . . فهذا الشعب السامي (العربي) الذي كان جانباً من الكنعانيين (١) سكان الشام الأقدمين ، انساح على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية حتى تونس حيث أقام مدينة قرطاجة واتخذها نقطة انطلاق ، بعد مدينة صور ، على جميع تلك الشواطئ . وحين انتهى إلى شواطئ المغرب انتقل منها بسهولة إلى البر الاسباني المقابل وأقام الصلة بين العدوتين . منذ الألف الثانية قبل الميلاد .

قام الفينيقيون ، على عادتهم ، بكشف المنطقة أولاً والتجارة فيها فترة من الوقت. ثم أخذوا في بناء المستوطنات الفينيقية التي تحول بعضها إلى مدن مাত্রال قائمة حتى اليوم . ومنها على البر المغربي مدينة ليكسوس (وهي العرائس الآن) ومدينة تنجي Tingi (وهي طنجة

(١) مدلول كلمة كنعان يعني اللون الأحمر والأغريق أطلقوا على الشعب الكنعاني الذي كان يسكن شواطئ المتوسط الشرقية اسم فينيق وتعني المعنى نفسه phoenix لتجارة بالصبغة الحمراء الأرجوانية . كما أن الرومان استعملوا هذه الكلمة نفسها لتسمية هذا الشعب . ولكنهم كانوا ينطقونها بالياء بدل الفاء ومنها جاءت تسمية الحروب البونية .

الحالية) وروسادير (وهي الآن مليلة) أما على :نبر الاسباني المقابل فنجد ملقة Malaga الحالية وكان اسمها مالحة (وكانت لتتمليح الاسماك وحفظها) ومدينة غادير (قادر) وتعني القلعة وقد سماها العرب فيما بعد قادس فهو اسمها حتى اليوم . ومدينة سكسي وقد عرفها العرب باسم المنكب واسمها الحالي مشتق من هذه الكلمة Almunacer وهي مصيف غرناطة . وقد سيطر الفينيقيون على المضيق وما حوله بعد أن أسسوا سنة ٨٠٣ قبل الميلاد مدينة قرطاجة في ساحل تونس (وتعني القرية الحديثة = قرت حداث Quart Hadasht) فترة تزيد على أربعة قرون ما بين القرنين الثامن والرابع قبل الميلاد ولم يكونوا يترددون في إغراق أي سفينة لاتخضع لتفتيشهم وأوامرهم وهي تجتاز المضيق .

ولم يكن استيطان الفينيقيين لهذه المناطق توسعاً سياسياً حربياً ولكن كان توسعاً اقتصادياً ثقافياً فقد حركوا العملية التجارية هناك بين العدوتين . ونقلوا على سفنهم معادن إسبانيا والمغرب من الفضة والقصدير والذهب (المستخرج من نهر الوادي الكبير) والرصاص والملح . وتاجروا بالاسماك ومنها (سمك الطون) الذي رسموه على نقودهم . ومنحوا البلاد المغربية لغتهم السامية فأثارتها باقية في البربرية إلى اليوم . ونقلوا إلى تلك البقاع حروف الهجاء التي ابتكروها في المشرق . كما علموا الشعوب هناك بعض الزراعات كشجر الأرز والصنوبر الذي جعل تلك المناطق ودياناً وجبالاً كثيرة الغابات وارفة الظلال .

ظلت قرطاجة سيدة الحضارة الفينيقية بعد أن دمر الاسكندر المقدوني مدينة صور الأم سنة ٣٣٢ ق.م فقد ظلت تحتفظ بسيطرتها على الحوض

الغربي للبحر المتوسط بين غيااب صور والحوض الشرقي لكنها اصطدمت بسرعة مع مطامع روما التي كانت قد توسعت في إيطاليا وأخذت في منافسة قرطاجة على تجارة غربي المتوسط. وما لبثت أن قامت الحروب بين الطرفين وهي الحروب التي عرفت بالحروب البونية (الفينيقية) Bellum Punicum منذ القرن الثالث ق.م ، واستمر الصراع طويلاً بين الطرفين أكثر من مائة سنة (٢٦٤ - ١٤٩ ق.م) وبرز فيها البطل القرطاجي هانيبال الذي استدار بجيوشه من المغرب فعبّر المضيق إلى اسبانيا ومنها إلى جنوب فرنسا واجتاز جبال الألب وشمال إيطاليا ليحاصر أسوار روما. وكان عبور المضيق أحد الأسباب الأساسية وأحد المواقع الاستراتيجية للصراع الذي انتهى بهزيمة قرطاجة وانتحارها . وبلغ الحقد عليها من الرومان أنهم أحرقوها ثم جرتوا أرضها وأصدروا لعناً لمن يعيد بناءها .

كانت نتيجة تلك الحروب سيطرة الرومان على حوض المتوسط الغربي وعلى المستوطنات الفينيقية فيه بما في ذلك مضيق أعمدة هرقل وما حوله. وانقطع بذلك التأثير الشرقي عن المغرب وأسبانيا مدة سيطرة الرومان على حوض البحر المتوسط أي حوالي ستة قرون (٢١٨ ق.م - ٤٠٩ م). تحولت خلالها قرطاجة إلى ولاية رومانية. وتحولت مستوطناتها إلى مدن رومانية ذات طابع روماني في المباني والمؤسسات وفي اللغة والعادات أيضاً . التأثير الشرقي الوحيد الذي اخترق هذا الحاجز الغربي الكثيف وانتصر عليه فيما بعد كان الديانة المسيحية . التي أوغلت في انتشارها ضمن الامبراطورية الرومانية حتى أزاحت الديانات الأخرى. ووصلت المغرب من اسبانيا. فأضحى حوض المتوسط كله مسيحياً

في نهاية القرن الرابع للميلاد . وقد انتشرت هذه الديانة في المغرب واسبانيا في وقت واحد تقريباً وتركزت في المنطقة الجنوبية من اسبانيا خاصة حتى لقد عقد المجمع الكنسي سنة ٣١٤ م في مدينة البيرة (غرناطة) وفي مدينتي طنجة ووليلي من البر المغربي منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع للميلاد .

وكما جرى في الامبراطورية الاسلامية مع شعوب الترك من بعد ، جرى في الامبراطورية الرومانية مع قبائل الجرمان من التيوتون والقوط من قبل . فقد استخدمت كل من الامبراطوريتين هذه الشعوب البدوية القوية عبيداً ومرزقة أول الأمر . وحين تبين الضعف في قواتهما الذاتية مالبثت العناصر البدوية أن تجمعت ، مع التكاثر ، في هجرات بشرية غزت أراضي الامبراطوريتين . وهكذا فقد تعرضت الامبراطورية الرومانية حين ضعفت في القرن الرابع لهجرة الجرمان من أطرافها الشمالية فيما وراء الدانوب والرين . وانساحت في أراضيها شعوب عديدة من هؤلاء . وإذا كان بعضهم قد وصل روما ودمرها . فان قسماً من شعوب القوط هم الفيزيقوط تدفقوا إلى اسبانيا ثم تلاهم الواندال الذين استقروا في جنوبها قبل أن يخرجهم القوط عبر بحر العدوتين . إلى شمالي افريقيا سنة ٤٢٩ . وإذا استطاع هذا الشعب المطرود أن يستولي على الشمال الافريقي كله ويأتي روما من الجنوب . فينهبها خمسة عشر يوماً سنة ٤٣٩ فان سيطرته على المنطقة لم تدم إلا قرابة القرن . واستطاع القائد بليزارايوس ، قائد الامبراطور جستنيان صاحب بيزنطة أن يقود زعماء الواندال عبيداً إلى القسطنطينية سنة ٥٣٣ . وذاب شعبهم من بعدهم في سكان الشمال الافريقي فلم تقم له قائمة من بعد .

وهكذا ، بالإضافة إلى أعمال حربية أخرى صارت بيزنطة سيادة البحر المتوسط . بما فيه اسبانيا والمغرب فترة من الوقت تبلغ سبعين سنة. ثم أخرجها القوط بعد ذلك من اسبانيا ومن بعض ثغور المغرب خشية أن يأتيهم غزو من الجنوب . كان هذا هو الوضع السياسي للمنطقة حين وصل العرب فاتحين إلى مياه بحر الظلمات بقيادة عقبة بن نافع ، عبر المغرب كله .

لم يكن قد مضى على الفتوحات العربية الكبرى يومذاك إلا حوالي نصف قرن ، كان الخصم الأساسي للعرب في البحر الأبيض المتوسط وما حوله هي الدولة البيزنطية التي فقدت في صراعها معهم شرقي هذا البحر وجنوبه.وقد رأى العرب وهم قوة برية كبرى أنهم رغم حصار القسطنطينية سبع سنوات ورغم انتصارهم بمعركة ذات الصواري البحرية وبنائهم الأسطول في شرقي البحر المتوسط لم يستطيعوا فتح تلك المدينة الاستراتيجية العصية ولذلك قرروا أن يأتوها من الغرب ، من البر الأوروبي ، رغم طول الطريق وصعوباته . وهكذا كان توسعهم في المغرب نتيجة تصميمهم على كسر أجنحة العاصمة البيزنطية في الغرب، وتحطيم قواها، ومحاولة العبور إليها عبر صقلية وجنوب إيطاليا والبلقان . كان المشروع طموحاً جداً لأنهم لم يكونوا يقدرون مصاعبه تمام التقدير. أو لم يكونوا يأبهون لها . وتمركزوا في القيروان ، المدينة التي بنوها في تونس قاعدة عسكرية . لكن القوى البيزنطية البحرية والبربرية البرية لم تتركهم في سلام. لاسيما وأن قلة أعدادهم مع بعدهم عن قواعدهم في الجزيرة والشام كان يحرمهم ، من المدد الواسع الكثيف . وجرتهم المقاومة البربرية مع اعتمادهم على القوى

البرية. بعيداً حتى سواحل بحر الظلمات . ولما كان قواهم البحرية في تلك الإصقاع ماتزال ضعيفة فقد تعرضوا لضربات قاسية من الأسطول البيزنطي الذي ركز قواه هناك. حتى لقد انتقل الامبراطور البيزنطي قسطنطين الثاني خليفة هرقل من القسطنطينية إلى صقلية « لحماية الأم – روما كما قال – وهي أم الملك ومركزه – قبل حماية البنت . وإذا اغتيل في شرقي صقلية سنة ٦٦٨ بمدينة سرقوسة (وهي سنة ٤٩ هـ . أيام معاوية) فان خلفه وابنه قسطنطين الرابع تابع السياسة نفسها في حماية الغرب البيزنطي من الاكتساح العربي . وبهذا الشكل أضحت صقلية القاعدة البحرية الأساسية للبيزنطيين في مقاومة التوسع العربي الذي تركز في القيروان .

دفع العرب غالباً ثمن ضعف قواهم البحرية في الغرب لمساندة تحركهم البري فقد قتل القائد التابعي عقبة بن نافع الفهري ، رغم عودته من الفتح ، على طريق يماشي سيف الصحراء. فقد تمكن البيزنطيون من التحالف مع الزعيم البربري كسيلا ، وأنزلوا قواتهم خلف جناحه الأيمن وطوقوه سنة ٦٤ / ٦٨٢ عند بلدة بسكرة الواحة الصحراوية الفقيرة في قرية هناك تدعى سيدي عقبة . وتكرر الأمر مع القائد الذي تلاه على إمارة إفريقية فقد تمكن من هزيمة كسيلا . لكن القوى البيزنطية قطعت عليه خط الرجعة على الساحل الليبي فاستشهد مع معظم أصحابه سنة ٦٨٧/٦٩ م .

تنبه العرب بهذين الحادثين ، مع حوادث أخرى ، إلى ضرورة بناء قواعد بحرية اسلامية في شواطئ المغرب . فلما تولى حسان بن النعمان الغساني جعل همه في بناء الاسطول البحري فأقام قاعدة له

في ميناء تونس ، بجانب قرطاجة القديمة ، وأنى بالحرقين من بناء السفن من مصر والعارفين بالملاحة ثم جاء من بعده موسى بن نصير سنة ٧٠٤/٨٥ م فوصل بدوره الحضاري وبقوته البحرية إلى المستوى الذي يناجز الأسطول البيزنطي . وبهذا الشكل منع هذا الأسطول من التدخل في أحداث المغرب . أو بسط السيادة الإسلامية على المغرب كله . لم يستعص عليه سوى ميناء سبتة الذي كان يسيطر عليه القوط الاسبان . فعين مولاه طارقاً بن زياد على ثغر طنجة لمراقبة هذا البلد .

وانصرف موسى إلى القواعد البحرية البيزنطية في غربي المتوسط يضربها في صقلية وسردانية والجزر الشرقية (الباليار) وكورسيكا مما شل حركة الاسطول البيزنطي على تلك المياه وأعطى موسى فكرة متابعة الفتوح عبر بحر العدوة .

كانت سياسة الأمويين مختلفة في هذه الناحية عن سياسة العباسيين الذين خلفوهم في الحكم . كانوا يعتبرون أي فتح قاموا به لأي جبهة بدءاً لفتح آخر، ومنطلقاً لنصر جديد ، في حين تلاهم العباسيون فاعتبروا الحدود التي ورثوها عن الأمويين نهايات للدولة، ومراكز امتناع ودفاع . الصفة الهجومية التي اتصفت بها السياسة الأموية هي التي دفعتهم لاجتياز المضيق بين العدوتين إلى العدوة الأخرى فحدودهم حيث تنتهي سنابك خيلهم، وليس حيث تقوم نهايات الحدود . وعلى الرغم مما يظن الكثيرون . وبخاصة مما يصر عليه المستشرقون من أن الفتوحات كانت عشوائية ارتجالية، فالواقع يكشف أن العرب كانوا إنما يصعدون في أعمال الفتوح عن تخطيط مسبق واستراتيجية منظمة .

ولم يسجل العرب فتوحاتهم في عهودها . وتأخروا في تسجيلها . وهذا التأخير جعلها في عيون المؤرخين في العصور اللاحقة ، وعصور العجز السياسي أشبه بالمعجزات. ولفقها مع النسيان بكثير من الأساطير والمبالغات. ونقلها من المستوى البشري أحياناً كثيرة إلى مستوى الخوارق الإلهية التي ترعى المسلمين وتمهد لهم النصر . والواقع أنها أعمال بشر لبشر. وقد دفع الفاتحون المسلمون ثمنها غالياً جداً من الأشلاء والدماء وأكوام القتلى في مختلف الساحات . ولم تأتهم المعجزة من السماء لأنهم كانوا يصنعونها بأيديهم، ويجبرون الارادة الصلبة والعقيدة الراسخة . لكن الثغرات الناجمة عن النسيان مع الأيام وغلبة الانبهار بالأحداث والرغبة في الالتصاق بالمعجزة، كل ذلك غيب المرات التي قاساها الفاتحون المسلمون وراء غمائم من التفاسير كلها أحلت القصص والخوارق محل الواقع التاريخي الذي نسي كلياً أو جزئياً . كان هذا حال الفتح الأندلسي فهو لم يكن مغامرة اجترحها طارق بن زياد ونجحت . ولكنه كان خطة أعدت لها وسائلها ومقدماتها وأهدافها وطرق تنفيذها وكانت لها بدائلها والضحايا . وكان قادة المسلمين على الدوام أحرص على أرواح جندهم من أن يدفعوا بهم في مغامرات مجهولة العواقب .

وما من شك أولاً في أن العرب قد عرفوا أشياء كثيرة عن اسبانيا المجاورة لهم . وعن خصب أرضها وما فيها من مغريات الغنائم . وأهم من هذا ما لموقعها الاستراتيجي من شأن ومن خطر عليهم. وهذا وذلك يشبه ما شعر به عمرو بن العاص وهو في فلسطين من امكان ومن ضرورة فتح مصر ومن مغريات ذلك ودوافعه .

وما من شك ثانياً في أن موسى قد استشار الخليفة وهو الوليد بن

عبد الملك ، في أمر الغزو وبسط له أسبابه ومشروعه فنصحه « أن يختبر (الاندلس) بالسرايا ولا يغرر بالمسلمين » (١) . واتبع موسى هذه النصيحة وأختار أولاً أن يدفع بصاحب سببة لجس النبض . وكان بين هذا الرجل المسمى يوليان وبين ملك القوط ضغائن شديدة حتى ليقال إنه الذي أغرى ابن نصير بالغزو. ولعل العكس هو الصحيح فقد أغراه موسى ووعدته بالمساندة. فغزا يوليان الساحل الجنوبي بمركبين من الجند وعاد وأيدي الجميع ملأى بالغنائم . وشدد ذلك من عزائم موسى فاستدعى أحد قواده المسمى طريف بن مالك النخعي وأرسله في مائة فارس وأربع مائة راجل (رمضان ٩١ / تموز ٧١٠) فترل في الموضع الذي يعرف حتى اليوم باسم وأغار على الجزيرة الخضراء وعاد بالسيبي والمال . وعند ذلك تبين موسى أن ردود فعل القوط أضعف من أن تقف لجيشه. وأن المقاومة لن تكون بالقدر الذي توحى به سعة المملكة القوطية. فأرسل عند ذلك بعضاً ثالثاً قاده موله طارق بن زياد . ويظهر من العدد المحدود من الجند الذي دخل به طارق إلى الاندلس أول الأمر . ثم من النجيدات التي رفده بها موسى بعد ذلك، ثم من لحاق موسى به لاستثمار النصر ، أن الجماعة الأولى التي رافقت طارق بن زياد لم تكن أكثر من محاولة ثالثة للاستطلاع ومعرفة مدى المقاومة القوطية . بعد أن أطمأن موسى تماماً إلى أن « لم يبق في البلاد من ينازعه » . داخلياً .

وتذكر المصادر أن جماعة الفتح كانت جيشاً برياً وأنها اعتمدت سواء في غزوة طريف أو في غزوة طارق على مراكب الحاكم يوليان أو

(١) أنظر في ذلك ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ وأخبار مجموعه ص ٦ ونفع الطيب ج ص ٢٣٧ وابن الأثير ج ٤ ص ٣٩٦ .

مراكب الروم . وإذا كان صحيحاً أن الجيش كان قوى برية فقط فيبدو من الواقع التاريخي أن المراكب التي نقلته لم تكن إلا مراكب عربية. فمن يستطيع غزو جزر المتوسط المختلفة من صقلية إلى سرادنية إلى جزر الباليار، وكان اسطوله منتوراً على طول الساحل المغربي لا يعجزه أن يوفر الأسطول الكافي لنقل جنده عبر المجاز الضيق بين العدوتين المغربية والاندلسية . عدا أن الاعتماد على المراكب الأجنبية أمر يتنافى مع سياسة الأمويين وسياسة موسى نفسه ، ويغزر بأرواح المسلمين ، ثم إنه من غير المعقول أن تستطيع أربع سفن قدمها يوليان — كما يقولون — نقل جماعة عسكرية عددها في أقل تقدير سبعة آلاف محارب عدا العدد والحيل . وأخيراً فإن طارقاً نفسه كان تحت يده وهو في طنجة أعداد شتى من السفن (١) ولا يحتاج معها إلى غيرها . وهذا كله لا يمنع أن يكون يوليان قدم بعض المعونة في سفنه .

وإذا اختلف المؤرخون حول شخصية طارق نفسه فقال بعضهم : إنه فارس من قبيلة الصدف العربية أو مولى لهم (وهي من قبائل كهلان اليمنية التي انتشرت في المغرب. وثم قرية باسمها قرب القيروان). وقال آخرون بتقريبه من الفرس وأنه همذاني الأصل . فالرأي الأرجح أنه بربري الأصل من قبيلة زناتة واسمه الكامل — كما روى الإدريسي —

(١) أنظر ابن الكردبوس الاكتفاء (نصر جديد عن الاندلس) في مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد سنة ١٩٦٥ ص ١٢ وعبد الملك بن حبيب (في مجلة المعهد سنة ١٩٥٧) ص ٢٢١ وابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١٥ وابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص ١٢٠ وص ٨ وأخبار مجموعة ص ٧ وابن خلكان ٦ : وفيات ج ٢ ص ٤٠٣ .

طارق بن عبدالله (زياد) بن ونمر الزناتي (١) ويظهر أن أباه هو الذي كان من موالي العرب. وتسمى بزياد ، بعد أن أسلم . ولنلاحظ أن معظم جند طارق يوم الفتح إنما كانوا من البربر .

وتتحدث المصادر العربية عن نزول طارق إلى البر الإسباني في سهولة ويسر . والواقع أن الأمر لم يكن كذلك أبداً ولقد لقي الشاطئ عند الجزيرة الخضراء ، حيث أزمع النزول محروساً فقد كانت هجمات يوليان ثم طريف انذاراً كافياً للقوط كي يأخذوا حذرهم من أي غزو يصيب قاعدتهم الهامة الاستراتيجية عند جبل طارق . ووجد طارق المقاومة العنيفة هناك وهو ما يزال على الشاطئ . فقام في الليل بحركة التفاف بارعة حول المرابطين في الجبل وتسلقه مع جنده من موضع صخري وعمر على المجاديف وبرادع اللواب . وفاجأهم من حيث لا يحتسبون فأوقع بهم وغنم الموقع . ثم تمرکز فيه وبنى سوراً حول جنده ظل يسمى سور العرب . كما حمل الجبل بعد ذلك اسم : جبل الفتح . وكان هذا هو هو النصر الأول الذي وضع أقدام العرب المسلمين على أول نقطة من البر الأوروبي .

و ثم ها هنا أمران اشتهرا في التاريخ العربي حتى أصبحا من الحقائق الكلاسيكية التي يرددها الناس لما فيهما من الجو الروائي الرائع ، ومن منح الفتح الصفة الدرامية . فالمؤرخون يتحدثون عن عملية احراق السفن التي جاء طارق بجنده عليها ليقطع أملهم في العودة ، أو ليجعل العرب الذين لا يثقون به يؤمنون أنه جعل نفسه والبربر الذين معه أمام مصير واحد معهم . كما يتحدثون عن خطبته الأدبية الرائعة في رجاله : أيها الناس

(١) أنظر القسم الخاص بالاندلس من جغرافية الادريسي نشر وترجمة كونده ص ٣٦ .

أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام وقد استقبلكم العدو بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا قوت إلا ما تستخلصونه من عدوكم » وتجوم الشكوك حول هذه الرواية كلها . . . التي تشبه الخيال المسرحي فقصة إحراق المراكب إنما رواها أول من رواها الأديسي في نزهة المشتاق وابن الكردبوس وهما من القرن السادس للهجرة ثم رواها الحميري صاحب الروض المعطار بعدهم فلماذا لم يذكرها المؤرخون السابقون على مدى خمسة قرون سابقة ؟ والعملية نفسها تروى عن عدد من القواد الذين سبقوا طارقاً (كأرياط الحبشي الذي عبر البحر إلى اليمن وعن القائد الفارسي الذي رافق سيف بن ذي يزن إلى اليمن ، وعن الذين لحقوا به) كأسد بن الفرات ، فاتح صقلية ، والقائد الأسباني كوارتز فاتح المكسيك وسفاحها). ولماذا يحرق طارق السفن ولا يأمرها بالعودة إلى ساحل المغرب ولا يوجد بينها وبينه إلا ساعتان في البحر ؟ وكيف يحرق اسطولا لا يملكه ؟ وقصة الخطبة قصة أخرى (١) إنها بليغة جميلة شائعة ولكن الشكوك تحف بها بدورها . فمن أين لابن زياد هذه البلاغة ؟ وكيف يخاطب جنداً كانوا في جمهرتهم من البربر الذين لا يفقهون العربية ، قضية احراق المراكب مبالغ فيها على الأرجح . ولقد يكون طارق قد خطب في رجاله . وقال شيئاً في معنى الخطبة المسرحية ولكن الرواية شذبت الخطاب وأعطته الصيغة البلاغية التي اشتهر بها

(١) أول من روى شيئاً عن خطبة طارق ولم تكن بالص معلومة هو المؤرخ ابن حبيب من رجال القرن الثالث الهجري وكتاب الإمامة والسر المنسوب لابن قتيبة الدينوري من القرن الثالث أيضاً . ثم ابن خلكان من القرن السابع والمقري في نفح الطيب من القرن الحادي عشر .

وجعلته باللغة العربية ولعله كان في الاصح خليطاً منها ومن البربرية .
والأمثلة على مثل ذلك كثيرة .

كانت الخطوة الثانية لطارق أنه أقام قاعدة عسكرية بجوار جبله على الساحل، لتلقي المعونات فيه وحماية ظهره عند احتمال الانسحاب. وقد أصبحت هذه القاعدة فيما بعد مدينة تعرف بالجزيرة الخضراء أو جزيرة حكيم (على اسم جارية، تركها طارق هناك) وهي ذات موقع استراتيجي مفتوح على سبيل المغربية القريبة في حين تقوم الجبهة الجبلية بينه وبين باقي اسبانيا . ثم أقام قاعدة أخرى في موقع مدينة طريف وجعل عليها طريقاً نفسه . وأقام السوار حول القاعدتين . فلما أوغل بعد ذلك في داخل البر الاسباني كان ظهره محمياً كما كان باب النجيدات أو الانسحاب وراءه مفتوحاً . ولم يجاوز في ايغاله حوالي مائة كم حتى كان الجيش القوطي يقف في وجهه بكل قواه . يقوده الملك بنفسه للزريق مع أنه كان مشغولاً في الشمال بثورة البشكنس (الباسك) وهذا يدل على أنه لم يفاجأ بالغزاة المسلمين وكان يعد نفسه للقائهم السريع ويعرف بتحركاتهم .

علم طارق من عيونه الذين بثهم، وهو يزحف إلى الغرب محتسماً بالمرتفعات الساحلية الجنوبية بحشد الملك للزريق وضخماته. فخشي العاقبة وهو في ثمانية آلاف. وبعث يستنجد مولاه موسى قائلاً « وإن الامم قد اجتمعت علينا . وأن الملك قد زحف بما لا طاقة لي به » وهذا يؤكد أنه إنما كان بعثة استطلاع واسعة ولم يكن ينتظر هذا الحشد الملكي ضده . وأمدّه موسى بخمسة آلاف محارب ، في نجدة يبدو أنها كانت المعركة الفاصلة بين الطرفين، والتي حددت مصير الطرفين، عند بحيرة تعرف باسم لاجوندا Laguna de la Junda في الكورة التي سماها العرب شلونة . وكانت

معركة اقتتل فيها الطرفان القتال الشديد حتى ظنوا أنه الفناء» (١) ودامت ثمانية أيام (من الاحد ٢٨ رمضان حتى الأحد ٥ شوال ٢ / ١٩ - ٢٦ تموز ٧١١) ويبدو من اختلاف المؤرخين في تحديد موقعها أنها لم تقع في مكان واحد . ولكن كانت سلسلة من المعارك في أماكن متعددة . فهناك من يقول بوقوعها عند وادي لكة شمالي شذونة قرب شريش . وآخرون في الجنوب عند وادي نهر البرباط الذي يخترق البحيرة . وفريق ثالث يقول بوقوعها عند نهر سلاو عند البحيرة أو عند موقع السواقي Segoyela في ولاية شذونة نفسها وقد قتل الملك لذريق في من قتل في المعركة عند هذا الموقع . وبقيت عظام القتلى في موقع المعركة دهرًا طويلًا لم تذهب (٢) بعد ذلك .

هذه الواقعة التي لم تكن في المغرب مقتل أعظم منها؛ أسلمت اسبانيا للفاطحيين المسلمين . وضمت أول قطعة من أوروبا إلى الخلافة العربية في دمشق . ونحن ندين بها إلى قيادة طارق وشجاعة رجاله وإلى الذين تركوا عظامهم على ذلك الصعيد . وفتح الطريق أمام طارق بن زياد حتى طليطلة عاصمة القوط . وعلى الرغم من خسائره في معركة وادي لكة وعدد جنده المحدود فقد استطاع أن يبعث بقسم من هذا الجند إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومي ، مولى عبد الملك بن مروان ، فحاصر هائلثة أشهر حتى سقطت . في حين انصرف طارق إلى قلعة استجة في طريقه Ecige فاستولى عليها . واكمل طريقه إلى العاصمة فدخلها دون مقاومة تذكر . كان الفتح التالي للمعركة الكبرى سهلاً لا تقف دونه إلا الحصون

(١) ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والأندلس (الجزائر ١٩٤٨) ص ٩٦ .

(٢) -ابن عذارى : البيان المغرب (ط . بيروت) ج ٢ ص ١٠ .

الحجرية . أما المحاربون فكانوا شرازم محدودة حتى إن العاصمة كانت شبه خالية تقريباً حتى من أهلها (١) ووقع في أيدي الفاتحين ما فيها من ذخائر وكنوز .

ومع أن طارقاً كان مطمئناً إلى ضعف المقاومة فإنه في إيغاله في قلب البر الإسباني كان مهدداً بقطع طرق مواصلاته في هذه المناطق الجبلية الوعرة التي تقطعها الأودية عرضانياً . وكان جنده محدوداً لا يكفي لتابعة الفتح، وقد تعبوا بعد أن قضوا الشتاء في اسبانيا، وأثقلوا بالغنائم، ومالوا إلى العودة لبيوتهم. فاستنجد بمولاه موسى الذي عبر البحر بعد سنة من الفتح (رمضان ٩٣ / حزيران ٧١٢) بجيش كبير يبلغ ثمانية عشر ألف محارب ، معظمهم من العرب من القيسيين واليمانيين ، وفيهم عدد من التابعين . هذه الحملة التي ثبتت أقدام الفاتحين في اسبانيا عرفت فيما بعد بطالعة موسى .

أتى موسى على غير الطريق التي سار عليها طارق، من الغرب فاحتل قرمونة واشبيلية وماردة ولقي طارقاً على نهر التاجو قرب طليطلة فسار القائدان معاً حتى جبال البرت Pirentes (البيرنة) على حدود الفرنجة. وسقطت في أيديهما المدن كالثمار الناضجة ، سرقسطة . وشقة . لاردة ومن الصعب قبول ذلك التفسير الشخصي الذي يجعل مجيء موسى إلى أسبانيا نتيجة حقد أو حسد لمولاه طارق وإنما جاء موسى وعن طريق آخر لإحكام الحصار ، كالكماشة ، على المواقع الإسبانية ولافتتاح المزيد منها . وقد بقي الاثنان بعد ذلك حوالي الستين يوماً في اسبانيا حتى أرسل الوليد بن عبد الملك يستدعيهما إلى دمشق. فتحركا معاً

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧

وسافرا معاً إليه أواخر ٩٥ / ٧١٤ بعد أن كانت معظم شبه الجزيرة
الاسبانية قد وقعت في أيدي المسلمين . لم يبق منها ناشراً سوى بعض
الأطراف الشرقية والشمالية الغربية للتصيفية . وقد فتحت الأطراف
الشرقية على يد الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي خلف أباه
في الاندلس . وكانت المقاومة قد تركزت في كورة تدمير وعاصمتها
أوريولة ، المدينة الحصينة. ولكنها سقطت في هدنة مع الجيش الاسلامي
على أن يستقل حاكمها بولايتها بموجب معاهدة عقدت معه شبيهة بالمعاهدات
التي كانت تعقد في المشرق أيام الفتوح . ويدفع الحاكم للفاتحين الجزية
السوية. ويبدو أنها لم تكن المعاهدة الوحيدة وأن مدناً أخرى فتحت على
الأساس نفسه ولكن التاريخ لم يحفظ لنا سوى هذه المعاهدة .

أما الركن الشمالي الغربي (غاليسية أو جليقية وأشتورياس
Asturias وقتبيرة فكان منطقة جبلية باردة . اعتصمت بها بعض
الفلول من الجيش القوطي سنة ١٠٠ / ٧١٨ بزعامه قائد يدعى بلايو Playo
(توفي ٧٣٧) نسجت حول مقاومته الأساطير . وقد استهان الفاتحون
به لالتجائه إلى رؤوس الجبال . وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن
يجيء منهم ؟ ولكن هذه الجماعة الصغيرة أضحت فيما بعد النواة
التي قامت عليها دولة (ليون) ثم استطاعت في فترة الضعف والانقسام
في الاندلس أن تتوسع على حساب الأراضي الاسلامية فيما سمي ، من
بعد ، حركة « الاسترداد » وبعد أن اتحدت مختلف القلاع على حدودها
وسيطرت على المملكة الشمالية ، حملت اسم مملكة قشتالة Castilla

(١) تعرف هذه الحادثة في التاريخ الاسباني باسم مغارة اونغا Goua donga
على اسم القمة العليا للجبال هناك ويعتبرها الاسبان نصراً على الفاتحين ويربطون بها مختلف
الآثار التي ترتبت عليها في القرون التالية .

وهي المملكة التي أعادت ، فيما بعد ، اسبانيا مسيحية وصارت لغتها هي اللغة الاسبانية الحالية .

هكذا قضى طارق أولاً وخلال أشهر على مملكة بأسرها في فتح لانظير له. ثم جاء موسى فأجهز على بقيتها . وأسباب الهزيمة القوطية عديدة. ويجب أن لانسى فيها تطويق موسى لاسبانيا في البحر بغاراته المستمرة في الحوض الغربي للمتوسط.. وقطع أسباب التجارة عنها. ونقمة عبيد الأرض والمأجورين فيها على الأسياد. ثم النزاع الذي نشب في داخل اسبانيا على الحكم الذي اغتصبه قبيل الفتح بقليل لذريق من صاحبه غيطشة، حتى تقاعس عنه الجيش وجماعة النبلاء، ثم خيانة اليهود هناك لإرغامهم على التنصر، مما جعل الفتح الاسلامي بتسامحه فرصة للتحرير والانقاذ . وفيما كان موسى يدخل دمشق بموكب الظفر ، كقواد الرومان في أربعمئة أمير من القوط على رؤوسهم التيجان وعلى أوساطهم المناطق الذهبية ومن حولهم آلاف الأسرى يحملون الغنائم، كان ابنه عبد العزيز الذي خلفه على الاندلس يتابع الفتح وتنظيم البلاد . وقد تم فتح الجزيرة الاسبانية كلها تقريباً في مدة لاتزيد على سبع سنوات .

ولم يقف انسياح الفاتحين عند جبال البيرنة (البورتات) العصية . لقد تجاوزوا في اندفاعهم الحماسي هذا الحاجز المنيع إلى ما وراءه . وأول من قطعه هو ثالث ولاية الاندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي وخلفه السمح بن مالك الخولاني الذي استطاع ٣٥١ هـ / ٧٢٠ م (أيام عمر بن عبد العزيز) أن يخضع الجنوب الفرنسي وأن ينزل أربونة (١) ويجعلها حصناً للمسلمين ويقيم فيها قاعدة حربية . ولكنه استشهد أمام

(١) هي ناربون الحالية في جنوب فرنسا .

طلوشة (تولوز) . وتبعه بعد ذلك عبدالرحمن بن عبد الله الغافقي الذي وصل في الفتح أبعد نقطة وصلها العرب شمالاً عند مدينة تور على نهر اللوار بعد أن أحرق بوردو ودخلها عنوة . والتقى الغافقي هناك بالجيش الفرنجي ، وكانت موجة الفتح قد استنفذت كل قواها . وابتعدت قواعد الجند عنهم . فخسر الغافقي المعركة . وقتل فيها بزلقة من حصانه . وقد جعل الفرنجة من هذه المعركة (التي تعرف لدى العرب ببلاط الشهداء ولديهم بمعركة بواتيه) أسطورة واسبقوا عليها مختلف الزخرف وجعلوا تاريخها في رجب ١١٤ هـ / تشرين الأول ٧٣٢ حداً فاصلاً في التاريخ . وصوروها معركة أنقذت العالم المسيحي من الاسلام . وإن كان بعضهم يعتبرها نكبة، ويعتبر قائدها شارل مارتل (المطرقة) قائد البربرية ضد المدينة .

والواقع أن الزحف الاسلامي لم يتوقف إلا باتجاه الشمال. ولكنه استمر باتجاه الشرق على ساحل فرنسا الجنوبي، واستقر هناك فترة طويلة تزيد على ثلاثة قرون بعد أن فتح آفينيون ١١٦ / ٧٣٤ ووصل حتى ليون ١٤٢ / ٧٥٩ م وحتى لوزان. ولما لم يكن جيش الفتح كافياً للهيمنة على البلاد ، وقد نجم الخلاف بين البربر والعرب فيه ، فقد سير الخليفة هشام بن عبد الملك من الشام قوة ضخمة تقدر بسبعة وعشرين ألفاً مهمتها تهدئة الثورة التي كانت قائمة ضد سياسته في الأراضي المغربية ، ودعم القوى الاندلسية يقودها بلج بن بشر . واجتاز هذا القائد ما بين العدوتين في تسعة آلاف من أهل الشام توزعوا في الاندلس، فبعض من أهل حمص نزل اشبيلية . وبعض من فلسطين نزل شذونة والجزيرة الخضراء. وبعض من دمشق نزل إليرة . ونزل أهل قنسرين في جيان .

ولما كانت الأندلس بعيدة الموقع عن مركز الخلافة وقوته كان أمراؤها أشبه بالخلفاء الصغار . وهكذا ازداد الشقاق بين العناصر الفاتحة المختلفة التي يريد كل منها أميراً من عصبية لاسيما مع ظهور الشيعتين بين العرب من قيسية ويمانية، إضافة إلى العصبية البربرية . ونتيجة لذلك تعاقب على الأندلس ، ما بين أواخر العهد الأموي ومطلع العصر العباسي (١١٤ / ١٣٨ / ٧٣٢ - ٧٥٥) ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين أميراً مختلفي الأهواء السياسية والدينية . في حين كان القيسيون أكثر ميلاً إلى السنة واليمانين إلى التشيع أما البربر فكانوا مع المذهب الخارجي الذي شاع إذ ذاك في المغرب .

كانت إدارة الأندلس تابعة أول الأمر لوالي المغرب في القيروان وإن كان الجيش أو الخليفة أحياناً هو الذي يختار الوالي بها . وكان أنموذج الحجاج بن يوسف وخالد بن عبد الله القسري في المشرق يغري الخليفة بدمشق بقيام وال في المغرب مثلهما ولكن الخلفاء لم يوفقوا لأنهم لم يلاحظوا الفرق بين جناحي الدولة . فكانت تبعية الأندلس لوالي المغرب اسمية دوماً . وكان مقر واليها في اشبيلية . ولكن السمع بن مالك الخولاني رابع الولاية نقل دار الإمارة إلى قرطبة . وانفرد الأمراء من بعده في الأمر فكانوا أشبه بالخلفاء الصغار في ذلك القطر القصي . ولم تكن سيطرة دمشق عليهم سيطرة كاملة . وقبل أن تنتفض الدولة الأموية بسنوات كانت الأندلس تضطرب ، كالمغرب ، في انتظار مصير جديد . وجاء سقوط الأمويين في المشرق ليعطيها الفرصة بالانفصال عن الخلافة وقيام إمارة خاصة بها ، كان مؤسسها أموي هارب من مذبحه الشرق هو المعروف بعبد الرحمن الداخل وبصقر قریش .

والجذور العميقة لهذا الاضطراب في الإدارة الإسلامية في الاندلس في أعقاب فترة الفتح ترجع في الواقع إلى عمليات استقرار الفاتحين الذين كانوا يتكاثرون على الأراضي الإسبانية وإلى توضعهم ضمن المجتمع القوطي الإسباني . وهو استقرار لم يتم بسهولة . وقد رافقته خصومات وزحامات كثيرة لابين الغالين والمغلوبين فقط ولكنها كانت أشد بين الغالين أنفسهم من عرب وبربر حين لاحظ البربر أن العناصر العربية قد استأثرت معظمها بالأراضي الحصبة في حين بقي للبربر المناطق الجبلية والأراضي الأقل خصباً وثمرات . يضاف إلى هذا أن الطبقات الحرفية والتجارية في المدن كانت تعتبر نفسها مضطهدة بسبب ما صارت تدفعه من الضرائب لجماعات كانت تعتبرها محتلة من جهة وكافرة من جهة أخرى . وهذه الطبقات كانت في كثيرها الكاثرة من الإسبان . أما الفاتحون فكانوا طبقة من المحاربين المميزين لم تتحول إلى طبقة مدنية وزراعية إلا بعد حين ، وفي الفترة التي أضحت فيها الاندلس إمارة مستقلة .

* * *

من الولاية إلى الخلافة

استمر الوجود العربي في الأندلس حوالي ثمانية قرون . كان خلالها متنوع النظم . ففي نصف القرن الأول كانت ولاية عربية تابعة لدمشق . ثم أصبحت بعد ظهور العباسيين في المشرق إمارة مستقلة . مدة تقل قليلاً عن قرنين ، ثم خلافة أموية أيضاً مدة قرن . ثم تمزقت بين الحكام قرابة نصف قرن ، قبل أن يصلها المدد المغربي فيستولي عليها قرناً ونصف القرن . فلما انهار تقلصت أي تقلص، واقتصرت مدة قرنين ونصف القرن على مملكة غرناطة قبل أن تنطفئ فيها الشعلة الأخيرة . أواخر القرن التاسع هجري/الخامس عشر للميلاد .

انتقلت الأندلس لتصبح إمارة مستقلة عن الخلافة الإسلامية على يد عبدالرحمن الداخل ولا شك أن لبعدها الجغرافي، ولانشغال العباسيين في المشرق، ولسياستهم الدفاعية التي سنّها المنصور، والفضى والعصبيات التي كانت فيها آثارها في هذا الاستقلال . فكانت أولى الإمارات انفصالاً عن الخلافة. ويبدو بأن الأمير الأموي لم يجرؤ على اصطناع لقب الخلافة هو ومن أتى بعده حتى مابعد قرنين تقريباً . كما لم يتخذ قراراً بإبطال الخطية للعباسيين نهائياً في الأندلس حتى سنة ١٥٧ / ٧٧٣ قبل وفاة المنصور بسنة واحدة .

وعبد الرحمن هو حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك . فر من الشام في مغامرة طويلة حتى وصل الأندلس سنة ١٣٧ / ٧٥٥ معتمداً على أخواله من البربر، وعلى قيسية الشام، وعلى استمالة اليمانيين . وكان قد مضى على والي الأندلس يوسف عبد الرحمن الفهري حوالي عشر سنوات في الولاية (١٢٨ - ١٣٧ / ٧٤٦ - ٧٥٥) . وقد ناوأه اليمانية والبربر وثاروا عليه . واستفاد عبد الرحمن من هذا الاضطراب في جمع الأنصار ودخول مدن الأندلس واحدة بعد الأخرى . وبعد أن سار نحو قرطبة وتقدم الفهري نحو اشيلية نشبت المعركة بين الطرفين (أوآخر سنة ١٣٨ / مايو سنة ٧٥٦) على ضفة الوادي الكبير . وانتصر فيها عبد الرحمن . ودخل قرطبة . في حين فر يوسف الفهري هارباً نحو الشمال .

كانت هذه أولى خطوات عبد الرحمن في امتلاك ارض الأندلس . لكنها لم تكن تعني امتلاكه كله . لأن مختلف القوى والطامعين تألبوا عليه الفهري نشر الفوضى في الشمال . وأعوان العباسيين حاولوا عبثاً إلحاق الأندلس بالخلافة الجديدة . والبربر انتقضوا وطلبوا بمثل ما احتكره العرب من الأراضي الحصبة . ولم يكن استخلاص ذلك سهلاً من الملاك الذين شكلوا طبقة ارسقراطية مميزة باعتبارها صاحبة الفتح والدين . كما انتقض على عبد الرحمن بعض أنصاره . ومنهم مولاة بلر واليحصبي زعيم اليمانية المؤيدين له . لكنه استطاع أن يخضع أعداءه واحداً بعد الآخر بالدبلوماسية تارة وبالحرب تارة أخرى . وكان أبلغ ردوده ما أجاب به المنصور العباسي الذي بعث بعض أعوانه مع لواء أسود لطرده عبد الرحمن من الأندلس فلم تمض سنتان حتى كان رأس هذا الرجل منشوراً في موسم الحج !... أما أخطر الالحظات فكانت تلك التي هدده فيها ، في الشمال سنة ٧٧٧ حلف جمع بين

صهر الفهري وحاكم برشلونة وشارلمان المشهور ملك الفرنجة الذي قطع جبال البيرية بجيوشه سنة ٧٧٨ ووصل حتى سرقسطة . لكنه اضطر للانسحاب حين طمع بالتوسع على حساب العرب . وكانت الضربات التي وجهها المسلمون والبشكنس (الباسك) إلى مؤخرة جيشه المنسحبة موضوع ملحمة شعرية مشهورة باسم أناشيد رولان ... وفشل التحالف .

لم تمض فترة من الوقت حتى برزت الاندلس إمارة موحدة . جمع عبد الرحمن عناصر شعبها حول شخصه . وأنشأ لها جيشاً أغلبه من البربر أحوال عبد الرحمن . و أقام فيها النظام الإداري المركزي الذي تعب عبدالرحمن في تنظيمه . وجعل للعاصمة قرطبة سوراً وشيد لنفسه قصرأ قربها . وبنى فيها جامعها الكبير الذي سيتبارى الأمراء والخلفاء من بعده في توسيعه وتزيينه . ولعله كان يفكر في مضاهاة بغداد التي بناها المنصور في تلك الفترة (سنة ١٤٥ - ١٤٨) بهذه العاصمة التي نظم الحياة فيها ، وزاد في زروعها بما استجلبه من الشام . وتظهر عبقرية عبدالرحمن في اهتمامه بمختلف نواحي الحياة في الأندلس . وحين توفي سنة ١٧٢ / ٧٨٨ بعد ٣٥ سنة من الحكم عن ٦١ سنة ، كانت كل أسس الإمارة بما في ذلك حياتها الفنية والفكرية والعمرانية والاقتصادية قد وضعت . الشيء الوحيد الذي لم يفلح الداخل في القضاء عليه هو العصبيات ضمن العرب والبربر والمولدين . لقد أحمدها لكنه لم يقض عليها .

توالى على الحكم بعد عبد الرحمن ابنه هشام الأول الذي بقي ثمانى سنوات (١٧٢ - ١٨٠ / ٧٨٨ - ٧٩٦) ثم حفيده الأول الحكم الذي حكم ستاً وعشرين سنة (١٨٠ - ٢٠٨ / ٧٩٦ - ٢٢٨) . في أثناء ذلك كان قد مضى على الحكم العربي في الأندلس أكثر من قرن وهي

فترة كانت كافية لظهور مجموعات جديدة في المجتمع أضيفت إلى تنوعاته فقد ظهر جيل المولدين في المدن خاصة Moladies وهم المسلمون الجدد من الاسبان وجمهرتهم من الفلاحين أقنان الأرض ومن العبيد المعتقين . ولم يكن اسلام بعض منهم صحيحاً لكن الاسلام كان يحررهم من العبودية . وقد أصبح هؤلاء اكثرية في السكان . وصارت لهم اطماعهم ومصالحهم . كما ظهر جيل المستعربين Los Mozarabes الذين لم يعتنقوا الاسلام . ولكن تألق الحضارة الاسلامية فتنهم فاستعربوا لغة ولباساً وعادات . وصار حديثهم بالعربية مجال نظرف وتميز في حين كانت العناصر المتعصبة تهاجم ذلك فيهم وتستنكره .

وفي الحين الذي لم تخفت فيه حدة العصبية المتنافرة بين المضربين واليمانيين من العرب وبين البربر ظهرت تحركات المولدين والمستعربين وكان كل هم الأمراء حفظ التوازن والسلام بين مختلف العناصر . لكن ألواناً من الاضطرابات العامة كانت تتوالى نتيجة التباينات الاقتصادية والتضارب في المصالح والأهواء . كانت الفروق فيما بين العناصر المختلفة التي كونت المجتمع الاندلسي تزداد تناقضاً بدل أن تتناقص . وتعمل على ازدياد التفرقة فيه وتباين المصالح وتصادمها بدل الاندماج والتوازي . ولم يكن ذلك غريباً مع الاختلاف الديني بين المسلمين والنصارى والتباينات المذهبية الاسلامية ، والزحام العنصري بين البربر الذين يعتبرون أن الفتح تم على أيديهم وأن العرب جاؤوا متأخرين وأخذوا المكاسب الأساسية فيه منهم . يضاف إلى ذلك أن توسع العلاقات الاقتصادية بعد الفتح بين شمالي افريقيا والاندلس وانفتاح طريق الذهب من السودان ، عبر المغرب ، إلى الاندلس أوجد طبقات من الاغنياء الواسعي الثروة في المدن

تقابلها طبقات هامشية ، وبخاصة من المولدين الحديثي الاسلام ،
والتي كانت تأمل من وراء اسلامها في مستوى اجتماعي أعلى فلم تظفر
تماماً بآمالها .

هذه العوامل المختلفة وتعقيداتها خلقت ضمن المجتمع الاندلسي
اضطرابات مستمرة حاول الأمراء تجاوزها بالتسامح الديني والعنصري
تارة او القضاء عليها بالقوة والبطش تارة أخرى. ولم يفكروا أو يعملوا
على دمج المجتمع لغوياً واجتماعياً كما جرى - إلى حد ما - في المشرق
فظلت أسبابها كامنة تعمل دون انقطاع على التأجج عند كل فرصة .
واستعراض هذه الحركات التي سمىها الكتب التاريخية « بالثورات »
قد يطول ولكن أهمها :

١ - (ثورة) الربض : وهي الضاحية الجنوبية لقرطبة
ومعظم سكانها من المولدين ، جديدي الاسلام الذين كانوا ، بتحريض
الفقهاء يريدون تطبيق التعاليم الاسلامية بخدافيرها . وكان الأمير الحكم
الأول (١٨٠ - ٢٠٨ / ٧٩٦ - ٨٢٢) لا يراعيها . وكانت هذه الحجة
غطاء لفوارق اقتصادية عنيفة زاد فيها فقر الفقراء وزاد غنى الطبقات
العليا ولهوها. فبدأ الناس يلوكون سيرة الأمير ويهاجمونه يأخذون عليه
فيما يأخذون اصطناع الحرس من الزنوج والمرترقة. وهاجموا موكبه
بالحجارة سنة ١٩١ / ٨٠٥ وظلت النقمة تتفاقم حتى انتهت سنة ١٩٩ /
٨١٤ إلى هياج شعبي في الربض بزعامة أحد فقهاء البربر . وحاصروا
قصر الامارة . وأنقذ الحرس الأمير . ثم أحاطوا بالثائرين وفتكوا بهم
الفتك الدريع. وأمر الحكم (الذي كسب في التاريخ لقب الحكم الربضي)
باجلاء سكان الربض عنه بعد أن صلب ثلاثمائة منهم على مجرى الوادي

الكبير . وكان لهؤلاء المطرودين دورهم في التاريخ فقسم ممن نزل منهم المغرب أسسوا في فاس أحد قسميها وهو عدوة الاندلسيين ووصل قسم منهم إلى الاسكندرية واحتلوها فترة. فلما أجلاهم عنها خرجوا إلى جزيرة كريت واقاموا فيها حكماً اسلامياً استمر قرناً ونصف القرن تقريباً .

٢ - حركة الاستشهاد : وكانت ردة فعل على تزايد اعداد الذين اعتنقوا الاسلام من الاسبان والذين استعربوا فقد أثار اسقف قرطبة يولوغبوس العواطف الشعبية النصرانية وحرصها على شتم النبي والاسلام لكي يحاكم القضاة المسلمون هؤلاء الشائمين ويحكموا باعدامهم. ويكون المحكوم في هذه الحال شهيداً . . . ولما قتل (سنة ٢٨٢ / ٨٥٩) زعيم هذه الحركة زاد ذلك من قوتها . على أن هذا التعصب المستيري وإن مس الكتلة النصر اعلى درجات متفاوتة لم يؤد إلى اعدام اكثر من بضعة وأربعين محكوماً .

٣ - ثورات الأمصار والإفراد : لم تكن الفترة التي قضاهـا الولاة والأمراء في الحكم كافية لدمج العناصر المختلفة بعضهم مع بعض في الأندلس رغم الجهود التي بذلها الأمراء الأوائل وبخاصة عبد الرحمن الثاني المعروف بالأوسط (٢٠٨ - ٢٣٨ / ٨٢٢ - ٨٥٢) والذي يعتبر من بناء الوحدة الأموية الاندلسية . فما إن وصل الحكم إلى الأمراء الضعفاء محمد الأول (٢٣٨ - ٢٧٢ / ٨٥٢ - ٨٨٦) ثم ولديه المنذر (ولم يبق سوى سنتين) وعبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ / ٨٨٨ - ٩١٢) الذي انتهى به عهد الأمراء. حتى برزت الفتن الانفصالية وبخاصة في مدن الأطراف وفي طليطلة . كان الضعف قد بدأ منذ عهد عبد الرحمن

الثاني الذي أخذ الفقهاء عليها انقياده لزوجته ولخادمة الحصى والفقية يحيى بن يحيى الذي نشر بالاستناد إلى نفوذ الأمير مذهب الامام مالك في الاندلس . لكن عهده كان عهد استرخاء وازدهار بسبب نشاط حركة التجارة مع المغرب، وتدفق الذهب السوداني عبر الاندلس إلى الغرب الأوروبي . وكان رمز هذا الاسترخاء الحضاري تألق نجم زرياب المغني المثقف الآتي من المشرق، والذي أصبحت أعماله وملابسه وتصرفاته وظرفه « موضحة » للناس وللطبقات العليا الناشئة في الاندلس . وقد حظى من عبد الرحمن الثاني بأوفر العناية والاكرام .

كان طبيعياً ، مع التطور الحضاري وازدياد الغنى وضعف الأمراء التالين أن تتحرك النزعات الطائفية التي برزت خاصة لدى المسلمين المستجدين في أطراف الدولة لدرجة تقارب الانفصال عنها بزعامة حكامها، ومعظمهم من البربر أو المولدين . وهكذا انقطعت عن الدولة مقاطعة رية في الجنوب بعد أن عقدت معاهدة اعطيت الحكم الذاتي سنة ٢٢٢ / ٨٧٣. ثم انقطعت في الشمال مقاطعة الأراغون التي كان يحكمها بتوقسي ذوي الأصل الاسباني. ثم أضافوا إلى إمارتهم سرقسطة وتطيلة وغيرها . واستبد بعد ذلك بنو ذوالنون بطليطلة وما حولها، وبنولب بالثغر الاعلى، وبنو الحجاج باشيلية، وعبد الرحمن بن مروان الجليقي في الجنوب الغربي، وبجواره أميران آخران. عدا نائر ثالث في مرسية وآخرين ظهوروا في فترات مختلفة في طرطوشه وبرشلونة ورندة والبيرة وإلبا وجيرونة وسرقسطة ووشقة وماردة وباجة وبطليوس . غير أن أخطر الثورات وأطولها كانت تلك التي قام بها عمر ابن حفصون وقامت بها طليطلة .

وكان هذا الرجل من المولدين ويدعي النبالة القوطية. وكان إسلامه ظاهرياً . بدأ قاطع طريق في الجبال سنة ٢٦٦ / ٨٨٠ وحين هزم واستتب خدم فترة في جيش الامارة ليعود ثانية إلى ثورته بقوة أشد وأوسع حتى أرهب المناطق الجنوبية التي ظهر فيها . وقد عاني الأمراء من محمد إلى عبد الله الكثير في قمع ثورته ، فلم يفلحوا . بل استطاع في فترة من الفترات أن يعزل قرطبة عن الاندلس . وقام بالاتصالات مع الأغالبة في تونس ، ومن خلالهم مع العباسيين على أمل منحه إمارة الاندلس وفشل في ذلك . لكنه استمر في ثورته ، هزم تارة وينتصر أخرى . وأخيراً كشف عن نصرانيته سنة ٢٨٦/٨٩٩ وتسمى باسم صمويل ثم هزم . لكنه اعتصم في مدينة بيشتر فظلت في يده حتى مات سنة ٣٠٥ / ٩١٧ وقضي سنة ٣١٥ على آخر أولاده بعد أن شغل معهم الدولة قرابة أربعين سنة وعادت المنطقة التي كان يملكها إلى حوزة قرطبة .

أما طليطلة عاصمة الثغر الأدبي فكانت الجرح الناغر في خاصرة الدولة على الدوام وبؤرة النقمة . لا تكاد تنتهي ثورة فيها حتى تقوم أخرى . ويبدو أنها وهي العاصمة التقليدية أيام القوط للبلاد ، كانت تنظر إلى قرطبة على أنها عاصمة المسلمين . وتنفس عليها انتقال المصالح والنفوذ والقوة إليها وما يتبع ذلك من الثروة والجاه . وتعتبر نفسها مضطهدة في العهد الاسلامي . كما يعتبر أهلها أنفسهم حماة النصرانية القديمة ولو أن الكثيرين منهم قد أسلموا . . . وكانت تستغل حصانة موقعها في محاولاتها الثورية المتعددة وقربها من الممالك النصرانية التي كثيراً ما أعانتها على التمرد . ونستطيع أن نعد لطليطلة ما لا يقل عن ستة تمردات كبيرة خلال فترة الإمارة الأموية انتهت كلها بالفشل . ولعل أقسامها

تلك التي انتهت بمؤامرة الحفرة وقتل فيها حوالي سبعمائة من وجهاء المدينة ! ! والمعركة التي كانت في سنة ٢٤٠ / ٨٥٤ وذهبت بحوالي عشرة آلاف قتيل منها ومن مملكة ليون النصرانية التي حالفها .

وجميع ثورات المدن والأفراد التي قامت مع الردود الشعبية العربية عليها وهي كثيرة ، انما كانت تمثل اتجاهات ومآرب وأطماعاً سياسية مكبوتة وجدت متنفساً لها في هذه الثورات. فهي نتيجة مخاض اقتصادي - اجتماعي لا تحركات فردية أو شخصية .

٤ - ثورات الزحام على السلطة في الأسرة الحاكمة ، ومثل هذه الثورات أطماع يساندها بعض المتنفعين أملاً في ما يعود عليها من وصول صاحبهم إلى الحكم . وهي أمور تجري دوماً وبكل مكان ضمن الأسر الحاكمة. وبصرف النظر عن أحقية الثائر أو الأمير في الملك فان المنتصر فيها دوماً هو القوة . وقد وقع ذلك في الأسرة الأموية بالاندلس. ولعل أهمها ثورة عبد الله وسليمان عمى الحكم بن هشام عليه حين تولى سنة ١٨٠ / ٧٩٦ بعد أن ثارا من قبل على أخيهما هشام الذي تمكن من نفيهما إلى المغرب . وقد استنجد العمان هذه المرة بالفرنجة فلم يفدهما ذلك فأسر سليمان في قرطبة سنة ١٨٤ / ٨٠٠ وطلب الثاني الأمان . وقد تدغم بذلك ملك عبد الرحمن بن هشام في السنة التي كان فيها شارلمان ملك الفرنجة يتوج أمبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة .

إن هذا الاستعراض للثورات لا يعني ابداً أنها أوقفت الحياة العامة في الأندلس . وأقصى ما فعلته أنها أقلقت الأمراء الحكام وزادت في متاعبهم ونفقاتهم . أما حياة الناس العادية ونشاطهم الاقتصادي والاجتماعي وانتاجهم الفكري فكان يتوسع ويزدهر ويقوى ، ولعل تلك الثورات

كانت ، في العلاقة الجدلية بينها وبين الحياة سبباً ونتيجة معاً للازدهار الاقتصادي الذي شمل الأندلس في فترة الإمارة وما بعدها . وإنما كانت تأتي على هامشها في حين كانت حركة الاقتصاد تغذي الآمال في أصحاب الثورات، كما تمنح القوة للامراء كي يستطيعوا قمعها . وعلى الرغم مما يعزوه المؤرخون للامراء من صفات يرون أنها تؤثر في تطورات الادارة والسياسة فان هذه الصفات من علم او حنكة او تدين أو هو أو جهاد لم يكن لها إلا الأثر المحدود في رضى الناس وغضبهم إلا إن اجتمعت معها وأثارتها عوامل ومصالح أخرى قائمة في القاعدة الاجتماعية للناس.

وربما كان من الأدلة على الازدهار الاقتصادي — الاجتماعي الواسع وعلى استبحار العمران والفكر في الأندلس في فترة الإمارة ، وهي الفترة التي منحت الأندلس صورتها الحضارية وأسس تكوينها التي نعرف أن الأمراء تمكنوا على الدوام، رغم كثرة الثورات الداخلية، من تحمل نفقات الحروب التي قادوها بنجاح كبير . كما تمكنوا في الوقت نفسه من تجنيد الجيوش وسوقها في حملات الغزو للدول النصرانية في الشمال. وفي عمليات الدفاع عن الدولة أيضاً. وكان الجهاد ضد « الكفار » يعطي الشرعية للحكام ويدفع عنهم الألسنة كما يمنحهم سمعة القوة والمنعة . وليس ثم أمير لم يقم بهذا الواجب المقدس فكانت جبهة الشمال والغرب على الدوام كما كانت جبهة البحر المتوسط في الشرق أحياناً مسرحاً مستمراً للحروب بشكليها الهجومي والدفاعي . ما بين برشلونة في قطالونية إلى أقصى مملكة جليقية بما في ذلك آراغون وقشتاله وليون وقد تجاوز ذلك ، عبر البيرة إلى جنوب فرنسا كما وصلت إلى الجزر الشرقية (الباليار) في حوض المتوسط الغربي . وكان

نجاح الأمراء الأمويين على مختلف تلك الجبهات نتيجة للمقدرة الاقتصادية التي يتمتعون بها في منطقتهم الواسعة ونشاط حركتي الانتاج والتبادل التجاري بينها وبين المغرب الاسلامي خاصة والغرب الأوروبي . إن قدرتهم على تحمل نفقاتها المستمرة دليل على قوة القاعدة الاقتصادية التي يستندون إليها . وعند الأزمات كما في عهد الأمير محمد وابنيه المنذر وعبد الله أواخر القرن الثالث كانت الدولة كلها تهتز وتهدد بالانهيار . ولم تكن العلاقات العدائية لتمنع عمليات التبادل الاقتصادي بين الأندلس الاسلامية والممالك المجاورة، ولا نشاط العلاقات الثقافية التي كانت تعطي تلك الممالك أكثر بكثير مما تأخذ منها نتيجة الفروق في المستوى الحضاري .

وتعداد تلك الحروب : الجهادية ، يطول . لكن أهمها بعد انسحاب شارلمان عبر ممر رونسفال أيام عبد الرحمن الداخل :

١ - حملة هشام ابنه سنة ١٧٥ / ٧٩١ على جليقية ونصره على ملكها برمودو الأول ثم تكرار الغزوة سنة ١٧٩ / ٧٩٥ .

٢ - حملة هذا الأمير على جيرونة في جنوب فرنسا عبر البيرنه سنة ١٧٦ / ٧٩٢ ووصول جيشه منتصراً حتى سبتمانية .

٣ - حملات الحكم بن هشام سنة ١٨٠ / ٢٠٠ - ٧٩٦ - ٨١٦ على إلبا ومنطقة القلاع (قشتالة القديمة) ومملكة اشتورياس .

٤ - الاغارة على منطقة القلاع سنة ٢٠٨ / ٨٢٣ وما بعدها حتى اضطر ملك اشتورياس إلى عقد هدنة سنة ٢١٣ / ٨٣٨ دامت عشر سنوات .

٥ - الدفاع ضد هجمات النورماند (الفايكنغ) الذين غزوا سنة ٢٢٩ / ٨٤٤ مرفأ لشبونة في ثمانين مركباً وتوغلوا بسفنهم الرقيقة في عمق الأنهر الاندلسية وفي الوادي الكبير ، حتى هزموا بعد عدة مواقع سنة ٢٣٠ وفروا بعد أن دمروا مدينتي لبلة وباجة . وكان من نتائج هذه الغارة اهتمام عبد الرحمن بن الحكم باعداد قطع الاسطول البحري في غرب المتوسط . ثم اشتبك الاندلسيون مع هؤلاء القراصنة غير مرة وهزموهم بعد ذلك ، وبخاصة في عهد الامير محمد بين سنة ٢٢١-٦٤٤ .

٦ - غزو مدينة برشلونة مرة بعد مرة بين سنتي ٢١٢ - ٢٤١ / ٨٢٧ - ٨٥٨ وإضعافها دون النجاح في احتلالها .

٧ - أسر ملك نافارا في حملات الأمير محمد عليها وعلى قشتاله وأراغون سنة ٢٤٦ / ٨٦٥ وبقاؤه في الأسر عشرين سنة .

٨ - قيام ولاية الشمال الاندلسي بالغارات الدفاعية على ممالك الشمال النصرانية ما بين سنتي ٢٨٠ - ٢٩٨ هجرية

٩ - فتح الجزر الشرقية (الباليار) سنة ٢٩٠ / ٩٠٣ على يد القائد عصام الخولاني .

هذه العلاقات العدائية مع دول الشمال النصراني كان يقابلها علاقات فيها نوع من الحياد الخذر مع المغرب وتونس . فبعد أن قطع عبد الرحمن الداخل أمل العباسيين في الاندلس وقطع هرون الرشيد أمله من المغرب بعد قيام دولة الأدارسة فيه وأقامته لدولة الأغالبة في تونس ، استراحت إمارة الاندلس إلى هذا الحاجز من الدول بينها وبين المناطق العباسية فقد كان فيما بين الادارسة والأغالبة عداء بعض الامارات

الصغرى، دواتان خارجيتان هما الرستمية والمدراية وقد انصرفت هذه الدول إلى العمل التجاري—وإن امتد الأغلبية إلى صقلية لسبب تجاري سياسي، أيضاً— وعمات مرافئ الشمال الأفريقي والأندلس معاً في نقل البضائع التي كان أثمنها الذهب السوداني والعييد، فاغتنى الشمال الإفريقي تدريجياً. وظهر فيه مايزيد على عشرين مدينة ومرفأً كان أبرزها مدينة فاس في المغرب، عدا ماظهر في الأندلس منها. أقصى ماكان يريده أمراء الأندلس، إن لم تتم لهم السيطرة على المغرب وأن تكون العدو الجنوبية تحت سيطرتهم أو نفوذهم تأميناً لشواطئهم في الجنوب. وأن لا تظهر فيها قوة ضخمة ولا تقوم أساطيل في البحر أقوى منها، وتحالف بعضها مع بعض ضدها. هذه الاستراتيجية السياسية ظلت متبعة طول عهد الأمراء فكانت الأندلس رغم ارتباطها الديني والفكري والحضاري مع باقي العالم الإسلامي معزولة عنه، منفردة بمصيرها.

وتعطي المصادر بعد هذا وزناً كبيراً لصفات الأمراء من حزم أو كرم أو هو أو حب الجهاد أو ورع وتنسب إلى هذه الصفات الأميرية المالكية انهيار الدول أو نجاحها. والواقع أنها ذات دور ثانوي في حياة الدول، ونيس لها— بسبب وجود المستشارين حولهم— إلا أضعف التأثير في قراراتهم السياسية والعسكرية، أو في قراراتهم العمرانية أو في تطور الحياة الفكرية. فالجوائز التي كانت تمنح إنما كان ينالها بعض الشعراء والمقربين. وفيما عدا ذلك فإن توافر الموارد ووجود الحاجات والضرورات الحياتية هي التي كانت تملي على الأمراء مواقفهم العسكرية والدفاعية وأعمالهم العمرانية كتمويل بناء القلاع والأسوار أو تسخير بعض الجماعات لها أو إقامة الجسور فوق الأنهر. كما كان بناء المساجد

وتوسيع جامع قرطبة نتيجة تزايد عدد المساجين وتكاثرهم مع الأيام . وكان تزيينها نتيجة الوفرة المالية التي تتمتع بها الدولة . ومثل ذلك بناء القصور . وهكذا نفهم بناء جامع قرطبة بأمر من عبد الرحمن الداخل ثم توسعته أيام ابن هشام وتوسعته ثانية أيام حفيده وثالثة بعد ذلك . وإقامة قنطرة قرطبة الشهيرة بأمر هشام نفسه ، ثم بناء جامع اشبيلية وسورها الكبير . بعد الغزو النورماندي . وبناء الأسطول وتزيين قرطبة أيام الحكم بن هشام .

ولنلاحظ بعد هذا أن دولة الاندلس مثلها كمثل جميع الدول المعاصرة لها كانت تهتم بأمرين اثنين :

١ - إقامة العدل بين الناس عن طريق النظام القضائي لارتباط ذلك بالأمن الضروري لسير الحياة العامة سيرها الطبيعي .

٢ - القوة المستندة إلى الإمكان الاقتصادي القوي وهي التي كانت تحدد مدى الحاجة إلى الجيش والانفاق عليه سلاحاً وتجنيداً وإعداداً وقلاعاً وأسواراً لضرورات الأمن الداخلي وقمع التمردات وللدفاع الخارجي . ضد القوى العدو . وكان إثبات الهيبة والسمعة للدولة سواء كان ذلك داخلياً أو خارجياً مرتبطاً بتلك القوة .

يبقى أن بعض الأمراء كان يتجنب النفقات الزائدة كمحمد بن عبد الرحمن بسبب فقر الخزينة نتيجة بذخ أبيه لصالح الجوّاري والصقالب . أو يترك للحاشية أن تؤثر عليه كبعض سابقه . وليس من الضروري أن تكون هذه النصائح والتأثيرات سيئة دوماً كما ليس من الضروري أن يكون استبداد الأمير برأيه صحيحاً دوماً . ونتيجة لهذا فإن قوة الدولة الاندلسية وضعفها لم يكن يحددها البلاط نفسه بقدر

ماتحدها قوة البنية الاقتصادية- الاجتماعية التي تقوم عليها أو ضعفها. ولهذا استطاعت الاندلس أن تمر من عهد الإمارة إلى عهد الخلافة بنجاح كبير ذلك أن ضعف الأمراء في إدارتهم المركزية لم يكن ينعكس إلا على إدارة الدولة من الناحية السياسية أو على ازدياد نفوذ حكام المدن، وولاية الأطراف، وقلة موارد الأمراء في المركز، وكثرة المتترين والناشرين في أنحاء الدولة ومطامعهم. وهكذا لم تؤثر كثرتهم في عهد الأمراء الأخيرين رغم اقتسامهم إدارة الإمارة في بيشر حيث يعتصم ابن حفصون منذ زمن أو في أشيلية أو جيان أو وادي آش أو طليطلة وبطلبوس وتدمير وبلنسية .

وعبد الرحمن (الناصر) حفيد الأمير عبد الله، بدأ عهده أميراً كغيره سنة ٣٠٠ / ٩١٢ وكان قد مضى على ظهور الفاطميين في تونس والمغرب واتخاذهم لقب الخلافة ثلاث سنوات فقط . وكانت هذه أول مرة يظهر فيها خليفتان في الاسلام . وقد استمر عبد الرحمن على لقب الإمارة حتى أواخر سنة ٣١٦ / ٩٢٩ تم أمر أن يخطب له على المتابر بلقب الخليفة الناصر لدين الله وبامرة المؤمنين مجارة للفاطميين وتعبيراً عن النجاح الذي لقيه في ادارة الدولة . ولم يكن لهذا التغيير في اللقب أكثر من المعنى السياسي ومحاولة استغلال ضخامة اللقب الذي ظل لمدة ثلاثة قرون مقترناً باسم الدولة الوحيدة والكبرى في العالم يومذاك . لاسيما بعد ان أنحطت هيبتها في المشرق .

جعل عبد الرحمن همه أن يعيد السلطة إلى المركز معتمداً على الجيش. فكانت حملاته أولاً على التمردات الداخلية. وهكذا في حملة استمرت ثلاثة أشهر أحيأ سلطته في جيان ووادي آش في السنة الأولى لإمارته

وشجعه ذلك على مهاجمة اشبيلية في السنة التالية وإخضاعها بعد حصار طويل فهدم أسوارها وقضى على تمرد المولدين فيها ثم هزم بين سنتي ٣٠١-٣٠٥ ابن حفصون في عدة معارك ، مع حلفائه النصاري وتخلص منه بالمواقع واسترد منه مقره في مدينة بيشتر سنة ٣٠٥ . وبدأ بوضوح أن السلطة المركزية في قرطبة قد استردت عافيتها بعد ضعف . وعادت إليها مواردها للاتفاق على الجيش الذي كان يزداد بذلك عدداً وسلاحاً وقوة . ويقوم بالمهام العسكرية التي يكلف بها . ثم توفرت بالتدريج القوى المالية المبعثرة تتجمع بازدياد في خزانة قرطبة لتسمح بالسيطرة على طليطلة وبطليوس وتدمير وبلنسية في حملات موفقة متتالية . وهكذا استند الناصر بصورة أساسية :

١ - إلى جيش لم يبتكر طريقة تجنيده من المماليك المصقالية خاصة ومن المرتزقة وغيرهم. ولكنه توسع فيه وأحسن استغلاله . وكان حرسه منه فيما يقولون ٣٧٥٠ جندياً في حين بلغ بجنده النظامي مائة ألف ، وهو في أوجه .

٢ - وإلى موارد بلغت فيما يذكرون ستة ملايين ومائتين وخمسين ألف دينار تقريباً وهو دخل لم تعرفه دولة الأندلس من قبل . وقد يبالغون فيقولون إنه كان في عهد الحكم الثاني خلفه ٤٠ مليون وقد قام هذا الدخل وذلك الجيش على قاعدة عريضة من الموارد التجارية والنشاط الزراعي والحرفي بلغ معها العمران العام في قرطبة وغيرها من المدن درجة كبيرة . ويذكرون أن سكانها بلغوا نصف مليون نسمة وكان فيها ٧٠٠ مسجد بجانب جامعها الواسع و ١١٣ ألف دار و ٧٠ خزانة كتب وكانوا يقولون إنها أصبحت خمس مدن في

واحدة . وبمنطقتها ١٤٨ حصناً ومن حولها ٢٩٤ برجاً للمراقبة . وكان من حولها ٢١ ريفاً (أي ضاحية) وكانت شوارع قرطبة مضاءة في وقت لم تعرف فيه شوارع لندن أو باريس التنوير العمومي إلا بعد بضعة قرون..

غير أن أهم مانجم عن قوة السلطة المركزية وتزايد سلطانها لم يكن تأمين البلاد فحسب ولكن تضائل القوة البارزة في أطراف الدولة والقضاء على طبقة الارستقراطية العربية والبربرية القديمتين في البلاد. لقد استنفذت هذه الطبقة دورها الأول السابق من حكم البلاد، ومن حيازة مواردها بحكم الفتح. فكان معظمها مجرد هياكل سياسية اجتماعية فرغت من وظيفتها، وحلت محلها الدولة المركزية وقد سحب الناصر البساط من تحت أقدامها بسهولة . واختار في نظامه الجدل الذي برز من خلال أعماله اعتماده على جماعة أخرى يثق بها هي ممالك الصقلية بصورة خاصة . وهكذا أقصى عدداً من الزعماء العرب عن المناطق الكبرى ووجه بذلك ضربة شديدة إلى الارستقراطية القديمة لم تستعد بعدها نفوذها إلا بعد حين وعلى نطاق ضيق .

هذه العمليات التي استمرت حوالي خمس وعشرين سنة بصورة أساسية وأعادت سيطرة قرطبة على جميع الأندلس ، كما أعادت إليه السلم ، ووحدت اجزائه في اطار واحد ، واكبتها في الوقت نفسه أعمال أخرى مكملت لها ومتبادلة التأثير معها أيضاً هي تأمين الجبهات الخارجية .

١ — فالجبهة الجنوبية في المغرب والتي كانت تقوم فيها دول محدودة الاطماع بحيث لا يمتد طموحها لضم الاندلس، والتي كانت تقوم مواردها الأساسية على التجارة بذهب السودان وعبيده وبعض

معادنه تحولت منذ آخر القرن الثالث إلى « خلافة » طامعة بملك العالم أو على الأقل يعتبر خليفته نفسه موكلاً بملك العالم وتسمت بالخلافة الفاطمية على اسم ابنة الرسول الأعظم كيداً بالعباسيين الذين ينتسبون إلى العباس عمه وتحدياً للامويين. ولم يكونوا يسلمون بأي زعامة للعالم كله بما فيه العالم الاسلامي إلا لهم، بدأوا يعدون العدة لغزو الأندلس بالدعاة المنظمين والأرصاد عبر العدو وبالعيون . وعقدوا حلفاً مع ابن حفصون الثائر . وعهدوا إلى كبير من كهراء رجال الفكر الاندلسي هو ابن مسرة الفيلسوف الصوفي أن يقيم الحزب الفاطمي تحت ستار التصوف وينشر المذهب الباطني . وامتد نفوذهم في المغرب حتى حلوا محل دوله . وصار شمال افريقيا كله لهم علماً مرافقاً محدودة ومواقع يهددونها. وأدرك عبد الرحمن معنى كل هذه التحركات . فاهتم بالقوة البحرية لامن أجل توسيع قدرة الأندلس التجارية فحسب ومزاحمة الفاطميين عليها في حوض المتوسط الغربي، ولكن من أجل الدفاع الحربي أيضاً . وكانت دار الصناعة لهذا الاسطول في المرية، أهم مرافقه . حتى أضحت أقوى الأساطيل في ذلك العصر . لاينافسه إلا الاسطول الفاطمي . واعتماداً عليه قرر أن أمن الأندلس لا يكون إلا بتأمين العلوتين على بحر الزقاق فأمر بحملة قامت ٢١٩ / ٩٢١ على سبته الموالية لحكم الفاطميين، واستولى على جانب من العدو الافريقية كانت لمملكة الادارسة وبعض ملوك البربر. ومامن شك في أن مناعة الاندلس في فترة حكم الناصر هي التي أسهمت في دفع الفاطميين إلى الاتجاه نحو المشرق ومحاولة فتح مصر أكثر من مرة في تلك الفترة .

وقد جرت مناوشات عديدة بين الأسطولين وهجمات متبادلة كان أخطرها الهجمة التي قام بها سنة ٢٢٤ / ٩٤٥ الأسطول الفاطمي من صقلية ، لأسباب تجارية سياسية معاً ، على المرية والساحل الإسباني فأجاب الناصر عليها بحملة انتقامية من سبعين مركباً على شواطئ أفريقيا أضرمت فيها النار وعاثت تخريباً في عدة مرفأء . على أي حال فقد كانت قوى الدولتين الاندلسية والفاطمية متعادلة ونشاطهما البحري التجاري كذلك. وهذا ما جعل تحركات الاندلس ضد الفاطميين في شمال افريقية وفي البحر حذرة ودفاعية في الغالب في حين فضل الفاطميون الاندفاع إلى مصر الأخشيدية .

٢ - وأما الجبهة الشمالية فكانت عرضة دون انقطاع لغارات الدول النصرانية الصغيرة على الحدود ليون وقشتالة ونافار والأراغون بسبب ضعف الادارة المركزية في قرطبة، وقلة الاهتمام بتجهيز جيوشها في عهد الأمراء الاخيرين قبل عبد الرحمن . ولم يكن قد مضى على إمارته سنة واحدة حين هاجم آردون الثاني ملك ليون ، على العادة ، أراضي العرب فسبى وغنم دون أن يعترضه معترض. فكان رد عبد الرحمن عليه عنيفاً ومباشراً إذ أرسل قائده أحمد بن أبي عبدة في جيش كثيف هزم جيش ليون في عدة معارك وخرب السور الغربي والحصون. وعاد مثقلاً بالغنائم . كانت هذه أولى الحملات ضد الإمارات النصرانية الشمالية التي حاولت بعد ذلك أكثر من مرة منفردة أو متحالفة مع بعضها النيل من أراضي عبد الرحمن مدفوعة بالحماسة الدينية من جهة وبالرغبة في سلب ونهب الأراضي الغنية من جهة أخرى فكانت تفشل . في حين كانت قوة الاندلس المتزايدة تمكنها من النيل منها حتى تمكن

عبد الرحمن من اجتياح عواصم الدول النصرانية مجتمعة واحدة بعد الأخرى : بامبلونة عاصمة نافارا وسمورة عاصمة ليون وبرغش Br̃gos عاصمة قشتالة . حتى طلبت هذه الدول الخلاص بالصلح . ولم يكن هم عبد الرحمن الغاء وجودها، ولكن ارهابها والخلاص من تهديدها . يظهر ذلك إثر الهزيمتين اللتين مني بهما الأولى في معركة شنت اشتبان سنة ٣٠٥ / ٩١٧ في أوائل عهده منتهزين فترة إخماد الثورات الداخلية وقد أجاب عليها بمحو هذه القلعة من الوجود سنة ٣٠٨ / ٩٢٠ مع بعض القلاع الأخرى. وهزيمة ارذنة الثاني (الأكبر) ملك نافارا وجيوش شانغه صاحب قشتالة مجتمعة أشنع هزيمة . والثاني في معركة الخندق سنة ٩٣٩/٣٢٧ فوالى عبد الرحمن المعارك بعدها حتى هزم الهزيمة الأخيرة كل تحالف ضده . واستراحت الجبهة حين نشبت الخلافات بين أعضائها من القوات النصرانية .

في النصف الثاني من عهد الناصر أضحت الأندلس دولة قوية بمواردها، وبالوحدة التي شملت أقاليمها وبأسها الذي تتمتع به وبالهيبة التي وقعت لها في قلوب الممالك المجاورة والبعيدة . ومن الانصاف أن نذكر أن هذه المكانة التي وصلت إليها دولة الأندلس لم تكن من عمل الناصر وحده، ولكنها استمرار للأعمال التي بدأ بها جده عبد الله من قبل ضد المولدين والبربر والنصارى. كما أنها نتيجة النشاط الاقتصادي الواسع الذي استفاد من مجموع هذه التحركات والأعمال من جهة. وساندها بالمقابل من جهة أخرى. كما كان نتيجة وسبباً في الاسهام الفكري الذي ازدهر في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس في تلك الفترة . كل نواحي الحياة فيها كانت في حالة ازدهار في وقت استكملت إمارة قرطبة فترة الأوج هذه في تطورها بأمرين :

الأول : هو العمران الداخلي المعبر عن توافر الغنى في الدولة . وقد تمثل ذلك في انشاء عدد من القصور الرائعة التي استدعي لبنائها أبرز المهندسين والفنانين من مختلف أنحاء العالم المعروفة وإقامة عدد من المتنزعات التي جرت إليها المياه من الجبال المجاورة . غير أن العمل العمراني الاساسي إنما كان تشييد مدينة الزهراء على إحدى الهضاب شمال قرية قرطبة على خمسة أميال منها . هذه المدينة الملكية بدأ العمل فيها في منتصف عهد الناصر سنة ٣٢٥ / ٩٣٦ ولم ينته حتى مابعد وفاته . وهي عبارة عن قصور ملكية للناصر وحاشيته بالغ في هندستها وترميمها وحداثتها حتى أضحت أفخم بلاطات أوروبا . وجعل فيها ٤٠٠ غرفة ومقصورة يسكنها الألوف من العبيد والحرس . واجتلب لها السواري والأحواض والتمائيل المنهبة وعمل فيها عشرة آلاف صانع مدة تزيد على عشر سنوات حتى سكنها وجعل لها سوراً بسبعة أبواب من الحديد . واتصل البناء بينها وبين قرطبة بسرعة حتى أضحت ضاحية ملكية تشرف على الوادي الكبير ثم زاد اثنان من خلفاء الناصر بعده في بنائها وتزيينها فصارت واحدة من المدن الكبرى كبغداد والقسطنطينية . ووصفتها راهبة سكسونية بأنها « جوهرة الناصر » .

الثاني : هو المكانة الدولية فقد حظيت الاندلس باحترام الدول الأوروبية والإسلامية على السواء وإذا لم تتبادل السفارات والهدايا مع الخلافة العباسية أو الفاطمية بسبب المنافسة السياسية، فقد عقدت العلاقات الدبلوماسية مع بيزنطة وغيرها من الدول الأوروبية . ووفدت سفارات هذه الدول عليها : إذ أرسل قسطنطين الرابع امبراطور البيزنطيين سفارته سنة ٣٣٦ / ٩٤٧ تحمل الهدايا ورافقتها في العودة سفارة الناصر

إليه . وجاء قرطبة سفارة من بطرس ملك الصقلية ولويس الرابع ملك فرنسا وأوتو الأكبر امبراطور ألمانيا هذا إلى سفارات الدول النصرانية في الشمال الاسباني من ليون ونافارا وقشتالة وغيرها يل جاء بعض هذه الدول يطلب المعونة أو الوساطة أو الاستشفاء أو المغنين والمهندسين والخياطين .

حين مات الناصر سنة ٣٥٠ عن ثلاث وسبعين سنة كان يحكم مملكة تمتد من مصب نهر الابرؤ الى المحيط الأطلسي ومن سفوح جبال البيرنة إلى جبل طارق . وقد ترك في خزانته ٥ ملايين دينار عدا العقار والثياب والمجوهرات والسلاح . مات « مرتويًا من الأيام » ومع ذلك يروون أنه كان يقول في أواخر أيامه أن الدنيا لم تصف له سوى أربعة عشر يوماً !

يعتبر القرن الرابع الهجري الذي بدأ بعهد عبد الرحمن الناصر قرن الاندلس العظيم وهو الذي صنع الكثير من مجدها السياسي والفكري . وكان عهد الأميرين التاليين للناصر تنمة لعهد على نحو ما . والخط البياني للأندلس في أيامهما كان استمراراً له في عهد الناصر وإن يكن أحدهما هو ابنة الحكم الثاني الذي تلقب بالمستنصر . (٣٥٠ - ٣٦٦ / ٩٦١ - ٩٧٦) أما الآخر فأمير مختص بالسلطة هو محمد بن أبي عامر المعافري وقد كسب الحكم سمعته الداخلية لآمن السلم والاستقرار اللذين وظدهما أبوه فاستمرت الآلة الاقتصادية على نشاطها في عهده . ولكن من إطراء رجال العلم والأدب له لأنه كان يحب المطالعة والقراءة ، ويولي العلماء بعطفه وجوائزه ؛ ويهتم بجمع الكتب من كل مكان ونسخها وينفق عليها . ويقولون إن مكتبته بلغت ٤٠٠ ألف مجلد للدلالة على

عنايته بالعلم ، وأن له تعليقات على ما يقرأ منها. فهو أشبه الخلفاء بالمأمون.
وفيما عدا ذلك فقد تابع أباه :

١ - في العمران فأنتم قصر الزهراء وزاد في مساحة جامع قرطبة بمقدار مساحته الأصلية وجعل له قبة فخمة وأمر بتزيينه بالفسيفساء المجلوبة . وبناء دار للصدقة بجانب المسجد وأخرى للوعاظ وللعاملين فيه.

٢ - في المحافظة على هيبة الدولة . فقد حاولت دول الشمال النصرانية التحرش بالأراضي العربية فقمعها، لأن الجيش كان مائزاًل على قوته وتنظيمه والاتفاق عليه . وهكذا اضطرت الحكم لمحاربة ملك ليون سانشو الأول لأنه نكث بعهوده ، ومحاربة صاحب قشتالة الكونت كوتزالث ، ومملكة نافارا . واستولى على عدد من مدنها . في حين كان بعضهم يلجأ إلى قرطبة طالباً المعونة على أخصامه . أو يرسل الوفود والسفارات مرضاة لها . فكانت قرطبة مركز الحركة السياسية في الجزيرة الأيبيرية كلها .

وقد حاولت الشعوب النورمانية (الفايكنغ) غزو الأراضي الأندلسية سنة ٩٦٦/٣٥٥ جاؤوا في ٢٨ مركباً فنزلوا جنوبي مدينة لشبونة فقاتلهم الجيش والناس في معارك عديدة . كما تصدى لهم الاسطول حتى ارتدوا إلى الشمال . لكنهم لبثوا يحومون حول الشواطئ حتى هاجموا كورة أخرى سنة ٩٧١ / ٣٦٠ فخرج لهم الاسطول العربي وأجبرهم على التواري .

٣ - في سياسته بالمغرب : فقد هدد التوسع الفوطمي ممتلكات الأندلس وراء العدو في تلك الفترة . ووصل جوهر الصقلي مثبتاً

نفوذ خليفته المعز لدين الله هناك . ثم جاء بلكين بن زيري الصنهاجي فهزم زناته سنة ٩٧٢/٣٦١ ثاراً لأبيه المقتول . فرأى أمير الادارسة الحسن بن كنون مسaire الفاطميين والخطبة لهم . وكان ذلك تحدياً لسلطة الحكم الثاني في المنطقة لاسيما حين هزم ابن كنون جيشه الذي أرسله لرده إلى الطاعة فأرسل الحكم جيشاً آخر دخل قلعة ابن كنون الحصينة حاجر النسر وأرسله أبوه إلى قرطبة فعفا عنه الحكم . وأجرى عليه وعلى حاشيته بعض الأرزاق وانتهت الدولة الأدرسية بعد ذلك بقليل عقب محاولة فاشلة لحياتها .

عاد المغرب كله للدولة الأندلس . ولنلاحظ أن حماسة الحكم في رد فعله ضدهم لم تكن بدافع الأمن والنفوذ فحسب فم يكن ثمة خطر منهم، ولكن الخطوط التجارية المتصلة بما وراء الصحراء كانت أكثر من ضرورة لغنى المدن الأندلسية ونشاطها الاقتصادي . كما أن التجار كانوا المصدر الأهم لموارد الدولة .

حين توفي الحكم كان ابنه هشام الثاني الملقب بالمؤيد (٣٦٦ — ٩٧٦ — ١٠٠٩) في الثانية عشرة من العمر فتولت أمه صبح — وهي بشكنسية الأصل الوصاية عليه . وعن طريقها وبرعايتها تسلل إلى دست الحكم مغامر عربي الأصل هو محمد بن أبي عامر المعافري اليماني . وهو من أسرة علم ووجاهة وقد بدأ حياته في قرطبة يطلب العلم . وكان يعتاش من كتابة الرسائل . ثم تمزس بالوظائف أيام الحسكَم . فتولى الاشراف على الخزانة العامة ودار السكة وتولى قضاء اشبيلية ولبلة ومديرية الشرطة . وكان حين مات الحكم أحد اثنين من كبار رجال الدولة ، فعين وزيراً . فكان لايعلوه إلا الحاجب المصحفي . لكنه استطاع بالدهاء والسياسة

تارة وبالهدايا والتآمر تارة أخرى أن يزيحه في زمن قليل ويسجنه، وأن يصبح الرجل الأول والوحيد في الدولة .

وكان رمز استبداده بالسلطة أنه هجر الزهراء خشية المؤامرة عليه وابتنى لنفسه سنة ٣٦٨ في ظاهر قرطبة قصرأ - مدينة سماها الزهراء يمضي منه الاحكام ويصدر الأوامر . في حين كان الخليفة الحدث يعتاد اللهو ويعزل أكثر فأكثر عن أي مهمة . تحت رقابة أمه الوصية عليه وابن أبي عامر معاً . وقانون ملء الفراغ سمح لابن أبي عامر أن يكون الخليفة غير المسمى ، لكن أعماله وطموحاته أهلته أيضاً لملء المنصب ولقبول الناس به .

١ - كان أول ماشغل ابن أبي عامر قضية الجيش . فقد كان للمماليك الصقلية فيه المركز القوي بجانب التكوينات القبلية من عربية وبربرية . فألغى نظامه التقليدي القديم . ونكل في الوقت نفسه بالصقلية . واعتاض بالطرفين مرتزقة جندهم من المغرب . ليكون ولاؤهم كاملاً له . ونظمهم كتائب وأقام لهم نظام المرتبات بدل الاقطاع العسكري واستكثر حتى ضاقت بهم قرطبة وأرباضها . ، وبهذا الجيش المأجور قام بالخطوة الثانية التي حاول بها أن يكسب شرعية الحكم وهي :

٢ - غزو الدول النصرانية في الشمال . ولقد أكثر من هذه الغزوات . حتى أحصوا له خمسين غزوة خلال عهده الذي امتد ستاً وعشرين سنة (بمعدل غزوتين كل سنة) ولم يهزم جيشه . الذي كان يقوده بنفسه أحياناً كثيرة في أي غزوة منها . كان يخرج في الربيع والخريف كل سنة إلى نواحي ممالك ليون وقشتالة وقطالونية للجهاد . ومن معاركه الكبيرة فتح سمورة سنة ٩٨١/٢٧١ واحتلال برشلونة

صيف سنة ٣٧٥/٩٨٥ وتدمير ليون وهدم أسوارها الضخمة والحقها بدولته وقد وصل بحملاته المضائق الجبلية في جليقية وخرب سنة ٣٨٧/٩٩٧ كنيسة شنت يعقوب وكان مزاراً للناس من أنحاء أوروبا ، دون أن يهدم القبر . وهكذا كان ابن أبي عامر يستحق لقبه الذي اتخذته مبكراً سنة ٣٧١ / آخر سنة ٩٨١ إثر الصائقة التي انتصر بها ذلك العام ... فصار يدعى بالحاجب المنصور سواء في مكاتباته الرسمية أم لدى الناس أم في التاريخ . وامتد نفوذه إلى أعماق الممالك النصرانية التي دفعت له الجزية رهبة . ولم يتخذ لقب الخلافة لأن مدة ٣٥٠ سنة كانت كافية لتوطيد البيت الأموي وشرعيته لدى الناس . وحرمة كالييت العباسي .

٣ — على أنه قبل أن يموت باحدى عشرة سنة أراد أن يقلد البويهيين في المشرق . ويجعل بيته موازياً لبيت الخلافة بالوراثة . فرشح ولده عبدالمملك لمنصب الحجابة التي كان يليها هو نفسه . وتبادل رئاسة الوزراء . ونجح في ذلك . على الرغم من أن ابنه كان لا يجاوز الثامنة عشرة من العمر . فأخذ العهد له بها سنة ٣٨١/٩٩١ وعهد بالوزارة إلى ابنه الثاني عبد الرحمن .

٤ — لم تكن غزوات « الجهاد » هي الأمر الوحيد الذي لجأ إليه ابن أبي عامر لكسب « الشرعية » في رئاسة الدولة ولكنه أضاف إلى ذلك أمرين :

الأول : تملق العلماء والفقهاء . وقد كان هؤلاء قد أصبحوا طبقة اجتماعية واضحة ومؤثرة في المجتمع الأندلسي تماماً كما كانوا في بغداد أو القاهرة . وكانوا أشبه بالحزب السياسي الديني نتيجة الضغط النصراني الشمالي من جهة وكون معظمهم يعيش على حساب الطبقات

الثرية وأحباسها من جهة أخرى . ولهم تأثيرهم القوي في الجماهير العامة باعتبارهم درع الدفاع عن الدين . وكان المذهب المالكي الشائع يساعدهم على ذلك . وقد حرص ابن أبي عامر على كسبهم والبر بهم . ووصل درجة إحراق كتب الفلسفة في مكتبة الحكم وما شابهها مما كان علماء الدين يستكرونه ليكونوا في جانبه ويكفوا ألسنتهم عنه . ونجح إلى حد كبير في ذلك .

الثاني : اعتماده أجهزة الدعاية . وعلى رأس هذه الأجهزة يأتي الشعراء وخطباء المنابر . وقد استمالهم وأوسع لهم في الأعطيات فكانوا الألسنة الناطقة بشكره ومديحه .

وهكذا لم تستطع صبح الوصية ولا ابنها الضعيف هشام أن يفعلوا شيئاً لابن أبي عامر . وجدا نفسيهما خارج الحكم تماماً . وتآمرت صبح لاسترداد نفوذها ففشلت . وتوارت تماماً من التاريخ في حين كان المنصور الحاجب يأمر بأن يخطب له على المنابر وبأن يضرب اسمه على النقود وأن تصدر الكتب باسمه دون الخليفة بعد سنة ٣٨٢ / ٩٩٢ .

كان ابن أبي عامر يتمنى ألا يموت إلا في ميدان الجهاد . وقد نال أمنيته الأخيرة هذه كما نال من قبل كل ماتمناه في الحياة . توفي وهو عائد من غزو قشتالة سنة ٣٩٢ / ١٠٠٢ في مدينة سالم ودفن فيها . ويذكرون أن غبار ثيابه في الحملات دفن في وعاء معه كما أوصى ، مقلداً في ذلك سيف الدولة الذي جعلوا غبار ثيابه لبتنه تحت رأسه قبل حوالي أربعين سنة .

لم يكن في استطاعة الخليفة هشام ، مع ضعفه ، أن يسترد سلطته بعد موت الحاجب المنصور . فقد كانت دعاية خمس وعشرين سنة وجهادها

وتألقها كافية لكي يرضى الناس بالبيت العامري. وتفاءلوا خيراً حين وجدوا عبد الملك بن المنصور يستقط عنهم بعض الضرائب ويتصر في غزوته الأولى ضد الشمال النصراني ويتلقب بالمظفر . فكأن شمائل أبيه لم تغب في الحزم والتواضع وحسن التدبير والشجاعة لاسيما وأنه قاد سبع غزوات ، معظمها نحو أراضي قشتالة ولم يهزم في أي منها . وتوالى خلال ذلك سفارات الملوك إلى قرطبة وكان أهمها سفارة الامبراطور باسيل الثاني صاحب بيزنطة .

وهكذا استمرت الاندلس، رغم تنوع الحكام في القرن الرابع الهجري كله، على تألقها وقوتها كدولة أوسطية لأن القاعدة الاقتصادية التي كانت تستند إليها لم تختلف . وكانت تمكنها من ذلك. كما أن حركة الانتاج ظلت واسعة فيها ونشاط التجارة عبر مرافئها نحو المغرب ونحو أوروبا تحت سيطرتها الكاملة. فكانت واحدة من الدول الخمس المعدودة في العالم . وهي الخلافتان العباسية في بغداد والفاطمية التي انتقلت إلى مصر سنة ٣٥٨ وأسس مدينة القاهرة، وخضت إلى حد كبير مزاحمتها للأندلس على تجارة الحوض الغربي للمتوسط وعلى تهديد المغرب . ثم الامبراطورية البيزنطية عدوة هاتين الخلافتين معاً في القسطنطينية والمسلكة الفرنجية في غربي أوروبا . ولم تختلف سياسة الأندلس ضمن هذا الوضع الحماسي فكان تعاطفها مع الامبراطورية البيزنطية واضحاً وعلاقاتها التجارية واشجعة مع بيزنطة . وقد استقدمت منها الفسيفساء لمبانيها والكتب عدا التجارات والوفود والسفارات والسبب واضح لأن الأندلس كانت تشترك مع بيزنطة في خصوماتها لكل من العباسيين والفاطميين ودولة الفرنجة . وكان التوازن الدولي حول البحر المتوسط قائماً على هذا

الأساس عدة قرون . كان رباعياً بين أربع دول كبرى أساسية قبل القرن الرابع . يقف فيه الطرفان عامة ضد الوسطيين . ويتحدث المؤرخون عن علاقات طيبة كانت تقوم بين الاندلس وبيزنطة كما يتحدثون على علاقات من مثلها بين العباسيين والفرنجية ثم صار هذا التوازن خماسياً بظهور الفاطميين في تونس سنة ٢٩٧ ثم انتقلهم إلى مصر سنة ٣٥٨ وتحولهم إلى دولة كبرى مؤثرة في سياسة البحر المتوسط .

توفي عبد الملك في حياة الخليفة هشام بعد حكم قصير دام ست سنوات فقط وبضعة أشهر . وختم بموته سنة ٣٩٩ / ١٠٠٨ القرن الذهبي للاندلس . ثم أعقبه ٤٠٠ / ١٠٠٩ موت هشام أو ما زعم أن موته ليسدل الستار على قرن التألق كله .

هذه المرحلة من تاريخ الاندلس التي دامت أكثر قليلاً من قرنين ونصف القرن وضعت عملياً جميع الأسس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لهذا التاريخ . ومنحت الاندلس لونها الاسلامي الخاص التي ظلت تعرف به إلى اليوم، والذي قد يذكر بكثير من الرومانتيكية والشعر والخيال . ويمكن أن نسميها كلها مرحلة التأسيس سواء في النظام الحكومي والمالي أو الفاعلية الاقتصادية أو الحركة الثقافية والفكرية . ولم تخل هذه المرحلة من أزمات عاصفة سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي ولكنها تجاوزتها نتيجة لعوامل عديدة .

فمن الأزمات السياسية : تلك التي سبقت استيلاء عبد الرحمن الداخل على الأندلس فقد كانت فترة الولاية غير مستقرة وإن صاحبها الفتوح وقد انتهت بعهد من الاضطراب الداخلي قاسى عبد الرحمن فيه الكثير

قبل أن يستقر له الأمر وتجتمع بيده الدولة . ومن المرجح أنها اولاه ولولا نسبه الأموي واضطهاد العباسيين للأمويين، لكانت الأندلس قد خرجت من أيدي الفاتحين فلم تكن أسبابها الاقتصادية وعلاقاتها قد ارتبطت بعقد وثيق الارتباط مع الشمال الافريقي الذي سبغها إلى الاسلام . ولا كان هو نفسه مستقراً ليمنح الفاتحين في الأندلس إمكان الاستقرار ويكون له وزنه في إقامته . ومن الأزمات السياسية أيضاً تلك التي نشبت ضد هشام بن عبد الرحمن بثورة أخويه سليمان وعبد الله عايد ثم ثورتها ضد ابنه الحكم فقد هزت ثورتها النظام العام بالتسلسل الوراثي، وإن لم ينجح في ذلك . ومنها ثورة الربض وهي في ظاهرها ثورة دينية وفي أعماقها ثورة طبقية اقتصادية انتهت سنة ٢١٥ بكارثة . ومنها ثورة ابن حفصون التي كادت تؤدي بالحكم الأموي كله في بعض الفترات التي حاصر فيها قرطبة . وقد تناولت فلم تحمد حتى مات سنة ٣٠٥ وكانت في جذورها شعور المولدين بالظلم الاقتصادي قياساً بالمكاسب العربية . وأتت بعدها الأزمة التي عاناها الأمير عبد الله بن محمد سواء من تأمر المولدين والنصارى على قرطبة، أو من جراء بروز البربر وأطماعهم على مسرح الأندلس السياسي . وأتقذ عبد الله الدواة من الانهيار .

وقد كانت الأزمات الاقتصادية أشد عنفاً وقسوة فلم تكن مسيرة الدولة كلها مسيرة تقدم وازدهار انتاجي . وقد هزتها عدة أزمات كان بعضها يطول أو يقصر ، أو يشتد أو يقل شدة . وأقساها كانت تلك الأزمة الكبيرة التي وقعت منذ السنوات الأخيرة لحكم الأمير محمد الأول حوالي سنة ٢٧٠ وامتدت حتى عهد عبد الرحمن الناصر أوائل القرن الرابع وقد حدثت في هذه الفترة مجاعات شديدة وجفاف مكرور في الموارد الزراعية كادت تقضي على عدد كبير من السكان الفقراء .

واضطرب الناس في بعض الأوقات إلى أكل الحيوانات الهائمة كالقطط والكلاب . كما لجأوا إلى مذابح البقر يأكلون دم الحيوانات الذبيحة فيها . وقد تكررت هذه الأزمة بعد قرن وربع القرن (في الربع الثاني من القرن الخامس) وكان لها أثرها في قيام ماوك الطوائف . تماماً كما كان للأزمة الأولى أثرها في احتراز الحكم الأموي، قبل أن ينقذه تحسن الأحوال الاقتصادية بعد مجيء عبد الرحمن الناصر .

كانت الأزمات الاقتصادية تصيب المناطق الشمالية من الأندلس أكثر من غيرها . لأنها مناطق جبلية قليلة الحصب وقليلة السكان . فالتوزيع السكاني الذي كان يشغل في الأندلس كلها خمسة ملايين نسمة تقريباً كان يتركز جله في المناطق الجنوبية الحصبة مما كان ينقص الأيدي العاملة في الشمال . ويقلل من إمكان الإصلاح الزراعي واستغلال الأرض على الوجه الأكمل . فكان الكثير منها دون استغلال . ويمكن أن نضيف إلى أسباب الأزمات الاقتصادية السلوك المالي لبعض الولاة مع المركز . فقد كان هؤلاء يحتجزون أموال الضرائب ولا يرساونها إلى الإدارة المركزية إلا بعد التأخير والتهديد وأحياناً باستخدام القوة . مما كان يضعف هذه الإدارة ويمنعها من تنفيذ مشاريعها العامة في الأمن وفي الدفاع ويتسبب في اختلال موازنتها بصرف النظر عن سوء استخدام هذه الموازنة من قبل بعض الأمراء . وهكذا لم يكن الخط البياني لدولة الأندلس يمشي صعوداً في القرون الأولى التأسيسية من حياتها وكان متذبذباً بين صعود وهبوط . ولكن مسراه العام كان يتجه نحو الازدهار والصعود الذي بلغ أوجهه في القرن الرابع في عهد كل من الناصر والمنصور . مع العلم بأن فترة الازدهار نفسها كانت تحمل في ثناياها عوامل انهيار الدولة ، على الطريقة الجدلدية . فالنفقات التي كانت تنفق سواء للأمن الخارجي

أم للأعمال العمرانية أرهقت خزينة الدولة. ومع أنها أعطتها مظاهر العظمة والقوة إلا أنها أضعفت أو أضاعت مواردها وقد ظهر ذلك جلياً في الفترة التالية منذ مطلع القرن الخامس .

والحكومة هي التي تحتكر كما في كل الدول ضرب النقود . وكان غناها بالذهب المحلي والمستورد قد جعل الدينار الذهبي أساس التعامل . كما كان ثم دراهم فضية . وفلوس نحاسية . ودار الضرب في قرطبة هي التي كانت تقوم عابها . وقد انتشرت نقودها في الشمال النصراني لأنه لم يكن يضرب النقود .

وليس لدينا أرقام محدودة تتعلق بميزانية الدولة في الاندلس أو بمقدار ما كان يدفعه ملتزمو الضرائب عن مناطقها وما يدفعه الولاة للمركز . والتنف المبعثرة لا تعطي فكرة واضحة عن ذلك كله . ولا تقدم بالطبع شيئاً ذا غناء عن تطور أو زيادة أو نقص هذه الأموال خلال فترة استمرت أكثر من ٢٥٠ سنة . ونستطيع القول بصورة عامة أن دخل الدولة الأساسي كان من الحراج الزراعي ومما تدره ضرائب الصادرات والواردات التجارية من المال . وأرقام هذه الدخول هي التي تصنع دون الضرائب الأخرى العديدة والمتنوعة ميزانية الدولة . ويذكرون ، في عهد الخليفة الناصر وهو أزهى العصور أن دخل خزانة الخليفة كان يقارب ستة ملايين وربع المليون من الدنانير . وأن ثلث هذا الرقم كان كله لفقات الجيش . وثلثه الثاني كان يخصص للمشاريع العامة والعمران . ويبقى الثلث الآخر احتياطياً في الخزانة . وعلى الرغم من أن الرقم اعتباطي والتقسيم له نظري بحث إلا أنه يسمح بأخذ فكرة تقديرية عن موارد الاندلس في أوجها . لكنه على أي حال لم يكن يعادل موارد الدولة

العباسية من سواد العراق وحده والبالغة تسعين مليون درهم (٧ ملايين دينار) تقريباً .

وكان دخل الدولة ييجيء كما في المشرق عن طريق الالتزام فكان ولاية الكور أن يؤدوه بعد حسم نفقاتهم ، إلى المركز في العاصمة . ومن هنا كان ضعف المركز يسمح لهم باحتجان ما يريدون منه . فتتقص واردات قرطبة ، وتعجز عن تسديد النفقات للدولة وبخاصة للجيش مع النفقات الحربية . وقد تعجز نتيجة التبذير كما جرى أيام الأمير محمد نتيجة تبذير أبيه . فقد عني باصلاح المشكلة المالية فعالاً في الشح إلى حد التفريط بشؤون الدفاع العسكري عن إمارته . وكثيراً ما وجد نفسه في نزاعه مع نبرة وأشتوريس في مأزق حرج . كما أنهكته الثورات التي كانت عليه في أراغون (حيث ثار موسى المولد) ، وفي بطليموس (حيث ثار عبد الرحمن ابن مروان بمساندة ملك اشتوريس) ، وفي الجنوب حيث ثار ابن حفصون ثورة طويلة . وأمكنه رغم ذلك وبالتقدير أن يوسع جامع قرطبة وأن يزيد في القصر الخلافي . وكان نظام البريد بدوايه ومحطاته ورجاله هو الذي يؤمن الاتصالات الداخلية في الدولة ، كما في المشرق . وهو حكومي فقط للشؤون الرسمية .

والدولة التي أقامها عبد الرحمن الداخل في الاندلس كانت نسخة مصغرة عن الخلافة في المشرق وإن سُميت بالامارة . ولكن الممارسة العملية للحكم أوجدت بينها وبين حكم المشرق بعض الفروق القليلة . فالإمارة وراثية كما كانت عليه الخلفان الأموية والعباسية وإن كان الخاصة والقواد في فترات الضعف يملكون التأثير لمبايعة فرد دون آخر من آل البيت الأموي المجمع على بقاءه . وكان للحاجب المركز الأول

في البلاط وبالتالي في البلاد باعتباره القائم على باب الأمير تماماً كما كان للحاجب في الخلافة الأموية . فهو بمثابة رئيس للوزراء وكما استعان بنو العباس على إدارة الدولة بوزراء يساعدونهم - والوزير في الأصل هو المساعد والمعين - كذلك استعان أمويو الأندلس . غير أنهم اتخذوا أكثر من وزير في وقت واحد ، وإن لم يتخصص هؤلاء الوزراء بعمل معين . وكان لكل منهم كتاب يشكلون الديوان مع الوزراء . وقد قسمت الأندلس ، عدا قرطبة ، إلى ستة كور أو أجناس (تماماً كما كان الأمر في الشام أيام بني أمية) ولكل جند أو كورة أمير يسمى الوالي ، وله الصفة المدنية والحربية معاً . والمدينة في الأندلس (كالأجناد أو الكور) قسم إداري له زمام (أي منطقة تحيط به) فيها مدن وقرى وحقول - وكانت البقاع المحيطة بالعاصمة تسمى مدينة . ومن الكور بلنسية وإشبيلية وغيرها ، وفي كل كورة عدد من المدن والقرى والحصون . ومن المدن قرطبة وما حولها . وكانت مدن الحدود كوراً عسكرية مثل تطيلة ، ويتبعها عدة مدن وحصون . وبديهي أن الكور الحدودية الشمالية كانت تتوسع - كما في عهد الناصر والحاجب المنصور - وتقبض تبعاً لتموجات الغزو ونتائجها ، فلم تكن الحدود هناك بالثابتة .

أما الجهاز القضائي فكان الأمير يفوضه إلى القضاة . وأما العاصمة فكانت مقر القاضي الأول الذي يدعى ، منذ القرن الثالث بقاضي القضاة كما في بغداد . أما القضايا الصغيرة المحدودة فيقوم بها صاحب الشرطة وله مكانته في العاصمة . ولكل مدينة شرطتها وسجونها . والقانون المطبق هو الشريعة الإسلامية . وللأمير النظر في المظالم . وكان يفوض بها قاضي القضاة . وكان للأسواق مراقبوها الخاصون وهم

المحتسبون ولهم سلطات واسعة ومكانة تفوق ما كان لهم في المشرق . وتشمل وظائفهم - وهي تعتبر وظائف دينية - جميع ما يتعلق بالأسواق من بيع وشراء وغش ونظافة كما تشمل فصل الخصومات الصغيرة وقضايا التطفيف في المكاييل والموازين وتجاوزات البناء ورقابة الاحتكار ومراقبة الحرف وكتاتيب الصبيان والامور الاخلاقية سواء في التصرف أو في اللبس . فهو « صاحب السوق » واهيرها والسبب في قوة المحتسب في الأندلس والمغرب هو اعتناقهم المذهب المالكي الذي يتشدد في كل ما يتعلق بالمعاملات العامة .

استند ازدهار الأندلس في فترة التأسيس إلى ثلاثة أمور :

١ - حسن الاستغلال الزراعي . فعلى الرغم من توزيع الأراضي بين الفاتحين إلا إنهم أبقوا على مزارعيها تماماً كما في المشرق مقابل نسبة معينة من المحصول يأخذها المالك ويدفع منها الخراج للدولة . واهتم الفاتحون العرب بزيادة الانتاج ليكثر دخلهم وبتنويعه بادخال الزراعات الشامية . بخاصة عليه . فنقلوا إلى الأندلس أساليب الزراعة الشامية . وحملوا إليها الغروس كالبرقوق (المشمش) والنخيل والدراق والرمان والبرتقال من الأثمار ، وزراعة قصب السكر و القطن والزعفران والرز . وزادوا في أنواع الكروم . ولما كانت طبيعة الاندلس متوسطة وفيها سهول الجنوب الشرقي المواتية فقد توسعوا في زراعة أنواع الحبوب وأشجار الزيتون . واحتفروا لكل ذلك الترع وأقاموا عليها النواعير والأقنية وعنوا جداً بوسائل الري وإذا كان اسم ملريد - وهي من بناء العرب - مأخوذ من كلمة مجرى (وجمعها مجريط) فان اسماء هذه الزراعات

باللغة الاسبانية تكشف أصلها العربي كما تكشفه الكثير من أدوات الزراعة الأخرى .

ولعل من أبرز ما حملته العرب إلى الاندلس فن الحدائق والعناية بها . وأخبار بساتين قرطبة وحدائق الزهراء المدرجة على مستويات ثلاثة وجنائن الزاهرة تملأ الكتب كما تملأ أنفوس الناس زهراً وعبيراً . ويكفي أن نراقب أسماء الكتب وكلها مشتقة من أسماء ازهور والورود والرياحين ، وأن نقرأ مقاطع الشعر الاندلسي لنرى ما كان يلعبه الزهر من دور جمالي في ذلك المجتمع . وكان من أواخر هذه الحدائق جنان العريف التي ما تزال قائمة على كتف قصر الحمراء في غرناطة . وقد ظهر أثر ذلك في قصور الاقطاعيين والملاكين الكبار بالإضافة إلى قصور الامراء والخلفاء .

٢ - وقد احسن العرب استثمار الموارد الزراعية والمعدنية في الصناعة واتقنوها . فصارت الحرف ومنتجات الصناعة في عهد الناصر والمنصور أي في القرن الرابع أتقن وأحسن ما في أوروبا كما كانت تحمل إلى المشرق في مصر خاصة . ورغم اشتها هذا القطر خاصة بالنسيج فقد كان النسيج الاندلسي يصدر إليها من الصوف والحرير من قرطبة ومالقة والمرية وسواها من الامصار . والعرب هم الذين أدخلوا الحرير إلى اسبانيا والسكر وصناعته فاختصت بهما . وقد ذكروا أنه كان بقرطبة وحدها ثلاثة عشر ألف حائك . وازدهرت صناعة الجلود في الاندلس دباعة واستخداماً ونقشاً نافعاً . ومنها انتقلت هذه الصناعة إلى مراكش فحملت من هناك الاسم الذي ما تزال تعرف به في أوروبا . وفي جبال جيان والغرب كانت تقوم مناجم الذهب والقضة كما تقوم مناجم الحديد

والرصاص حول قرطبة . ومناجم الياقوت حول مالقة. وانتقل الحرفيون الكثيرون من الشام خاصة ومن مصر لنشر صناعاتهم في الاندلس كالصياغة والزجاج المزوق وفن التكفيت على الفولاذ والنحاس بالذهب والفضة .

وارتقت أعمال البناء رقياً واسعاً وبلغت هندسة الجوامع والقصور والمدن وزخرفتها مبلغاً رفيعاً . وإذا كان بناء جامع قرطبة وتوسعاته نموذجاً للمساجد ولاستفادتها من عناصر البناء المحلية وكانت القصور الضخمة التي تشبه المدن من إنتاج المهندسين العرب كما في الزهراء والرصافة والزهراء فقد بنى العرب مدناً كاملة مجددة أو جديدة في فترة الإمارة والخلافة ، ومن بعدها ، مثل بجاية والبيرة وبلدة وتطيلة والجزيرة الخضراء وشلطيش — والحاضرة ودانية ومدرید وتطيلة وتلمنكة وطريف وغرناطة والقصر وغيرها مما بلغت عدده أربعة وأربعين مدينة مع القلاع والحصون عدا الاسوار والطرق والمرافىء . وكثيراً ما كانوا يستخدمون مواد البناء القديمة كالأعمدة وغيرها في البناء كما كانوا يستقدمون المهندسين من المشرق والفسيفساء من بيزنطة للترزين . ولا شك أن أسس نمط جديد للبناء قد ظهر في الاندلس وتميزت به. وقد أخذت فيه عن بلاد الشام نظام الباحات الواسعة داخل البيوت والحدائق الداخلية والترزين المموه بالألوان والذهب والرخام والمرمر مما جعل البيوت الاندلسية نسخاً أخرى من بيوت الشام . وتقدمت صناعة السفن بدورها التقدم الواسع وقامت لها دور الصناعة في المرية خاصة . وفي مالقة التي تزود الاندلس بالمراكب التجارية والحربية . كان لها اسطوها الضخم الذي يساند تجارتها الواسعة كما يعمل للدفاع

عنها. وقد ظهر أثره بخاصة في احتلال جزر الباليار وفي رد هجمات الفايكنغ النورمان .

ولم تكن طبقة الحرفيين والعمال قليلة العدد فهي تشكل جل سكان المدن . ويذكرون أن عشرة آلاف عامل اشتغلوا في بناء الزهراء خمسة وعشرين سنة ونستطيع أن نعد من الحرف المتنوعة حوالي مائة حرفة أو تزيد . . .

٣ - وإذا كان رخاء الاندلس بصورة عامة يرجع إلى توسعها في الانتاج الزراعي وفي النشاط الصناعي الحرفي فإن غناها الواسع الذي مكنها من التوسع في التجنيد وفي العمارة والأبنية وفي البذخ أحياناً فانما يرجع إلى التجارة . كانت الاندلس بالإضافة إلى تجارتها الخاصة هي الممر الطبيعي لتجارات أوروبا الغربية مع المغرب والسودان وراعه . وهي الوسيط وحلقة الاتصال . ولم تكن الواردات التجارية في هذا القطاع الحيوي من المعاش بالهينة فانها كانت مركز التبادل لحاصلاتها الزراعية والصناعية مع أوروبا . وتستورد منها العبيد الصقالية بكميات كبيرة . وكلمة صقلي توسعت في الاستعمال فلم تعد تعني المماليك السلاف ولكنها كانت تشمل جميع من يحمله النخاسون الأوروبيون والبيزنطيون والقرصان الاسبان من أسرى الأمم في مناطقهم من السلاف والبلغان والطيالين والامان واللومبارد والفرنجة وغيرهم . تماماً كما كانت العناصر التركية في بغداد اسماً لكل الرقيق من الشرق والشمال . وكان اليهود في الأعم الأغلب هم أصحاب هذه التجارة الانسانية . وكان الخصيان من هؤلاء العبيد يجري إخصاؤهم في مدينة فردان بشرق فرنسا ويستخدمون في البيوت . أما غيرهم فكانوا في الغالب يشترون من

قبل الحكام أدوات حربية . ويشكلون جانباً أساسياً من الجيش الاندلسي . وقد ظهر أثرهم بخاصة في زمن عبد الرحمن الناصر الذي مهد لهم . واستطاعوا أن يكونوا من بعد زعماء بعض الممالك والمدن . وإنما استخدمهم الناصر لأنه كان يريد أن يحضد شوكة الارستقراطية العربية ويبعد البربر قدر الطاقة . وقد تعرض الصقلالية بعد ذلك للنكبة على يد المنصور لخوفه من كثرتهم واتساع نفوذهم . ولكنهم بقوا قوة يحسب حسابها . وكان للجواري من هؤلاء العبيد أسواقهن ومكائتهن في القصور وأثرهن لاسيما إن تحلين بصوت جميل أو ببعض الجمال أو شلون بعض الأدب والشعر . وقد يشتهر عدد كبير منهن تروي أخبارهن كتب الأدب والتاريخ كما وجه بعضهن سياسة الدولة من خلال أزواجهن أو أولادهن . أما العبيد الزوج فكانوا للسوق المحلية ولخدمة البيوت والزراعة . وأعداد العبيد تنبىء عن مقدار الثروة العامة وعن مقدار الحاجة إلى الأيدي العاملة والحاجة في الوقت نفسه إلى « الآلات » الحربية العسكرية . وعلى الرغم من أننا لا نملك الاحصاء الدقيق لهذه الطبقة إلا أننا نعرف أنها تكاثرت مع تماردي الثراء وأنها شكلت في بعض الأحيان طبقة ضاغطة قوية في المواقع الحساسة التي تسلمتها في الادارة والبلاط والجيش . وقد بلغ عدد الصقلالية — على ما يذكر — في أيام الناصر قرابة أربعة عشر ألفاً في قرطبة وحدها عدا من كان منهم في المدن الأخرى .

إلى جانب تجارة النخاسة هذه كانت أوروبا تصدر الفراء والأخشاب والحديد وبعض المعادن وتأخذ بالمقابل الذهب القادم من السودان الغربي والعاج والصمغ والصوف المصبوغ واللبود والديباج والكتان . وضخامة

أثمن هذه البضائع جعلت طبقة التجار أقوى الطبقات في المجتمع الاندلسي ؛ وكسدت لديها الثراء فصارت صاحبة الجاه والثروة معاً . تماماً كما كان الأمر في المشرق بحيث صار التاجر رمز الحضارة العربية الإسلامية . وصار للتجار الكلمة السياسية الأولى . وإليهم يلجأ الأمراء كلما أرادوا المال أو فرض ضريبة جديدة لسيما في حركات الجهاد . ولم يكن يعدل تأثيرهم السياسي إلا تأثير الفقهاء رجال الدين . وكان الطبقتان تشكلان عوامل ضغط سواء على الأمراء عند اتخاذ القرار أو على الجماهير عند التنفيذ . أما الاسم الذي كان يطلق على طبقة التجار أو كبار الملاكين فلم يكن الخاصة كما في المشرق، ولكن الوجهاء والكبراء و « أهل » المدينة . وطبيعي أن توجد مقابل هؤلاء المثريين طبقة المحرومين أو المدقعين وهم يقومون في قاع المدينة والمجتمع . ويمكن أن تستنتج من ضخامة التبادلات وكثرة وارداتها والصادرات مبلغ الحركة التجارية التي يقوم بها الاسطول البحري الاندلسي خاصة ، بالإضافة إلى قوافل التجارة ، بين شواطئ المغرب من جهة ، وقد نشأت عليها لهذا السبب أعداد كثيرة من المدن الساحلية وبين شواطئ و مرافئ الاندلس من جهة أخرى، ثم بين هذه وبين المرافئ الأوروبية وبخاصة ماكان منها على ضفاف البحر المتوسط . وكان لهذه الحركة البحرية الناشطة أثرها حتى في مفردات الكلمات الأجنبية المتعلقة بالبحر .

هذا الخصب المادي الذي تحدثنا عنه بما رافقه من حركة معقدة وبراعات وإنتاج لم يكن البضاعة الوحيدة التي قدمها المجتمع الاندلسي ، في فترة الامارة والخلافة . فقد مشى بجانبه، وتوجه جهده آخر أهم منه هو العمل الفكري . وإذا كان الخصب المادي قد ذهب اليوم بكل ما فيه

فلم يبق منه إلا الآثار العمرانية فان الانتاج الفكري باق لنا وللأجيال وهو مأثرة الاندلس الكبرى .

حين وصل عبد الرحمن الداخل الاندلس لم تكن الحياة الفكرية العربية قد برعمت فيه . كانت عيون الفاتحين كلها متجهة إلى المشرق مرتبطة بما يظهر فيه من فكر هو في جملة ديني وبالدرجة الثانية أدبي . أما حضارة الايبيرين وفكرهم وثقافتهم فكانت بقايا قديمة يمزقها الأثر الفينيقي والروماني وأخرها القوطي. وإذا كان الروماني أبررها فان الاندلس ما كانت أبداً ذات ثقافة خاصة بها . ودخول العرب أرضها نقل إليها مركزاً حضارياً ناشئاً وناشطاً من أقصى الحوض الشرقي في البحر المتوسط ولأول مرة بعد العهد الفينيقي، إلى أقصى الحوض الغربي . كانت النقلة جغرافية فقط لكن الرضاع الفكري لهذا المركز الجديد ظل قائماً على الدوام. وكان في كثير من الأحيان صدى لجميع التطورات والتيارات الفكرية التي كانت تقوم في المشرق. كان الاشتراك في الدين الاسلامي واللغة العربية وفي الأصل والتاريخ يمنع المركز الابن من الخروج على الخطوط العامة للمركز الأب في المشرق، وإن جاهد — عبثاً — ولدوافع سياسية — في الانفصال عنه . وظهرت فيه بوادر وملامح خاصة تميزه كما ظهرت مبتكرات فنية خاصة .

كان بديهياً أن تكون اول طلائع الفكر العربي وصولاً إلى الاندلس بعد القرآن الكريم والحديث وعلومهما هو الفقه . ولما كانت الشام أوزاعية فقد انتشر في الاندلس المذهب الأوزاعي وتأخر دخول المذهب المالكي وانتشاره إلى القرن الثالث . وقد توطد في عهد هشام ابن عبد الرحمن (١٧٢ — ١٨٠ / ٧٨٨ — ٧٩٦) ومن بعده . وكان تشدد

الفقهاء المالكية أحد الاسباب التي أثارت فتنة النصارى في قرطبة «وهيج الربض» الذي لم ينته إلا بالدماء . وجاء مع الفقه الشعري . وكان معظم الأمراء الأمويين بمن فيهم عبد الرحمن الداخل شعراء كما كان رجال البلاط وكبار الدولة والوجهاء . وقبل أن تأتي سنة ٣٠٠ / ٩١٢ كان قد ظهر في الاندلس فقهاء مالكيون كبار من مثل ابن الماجشون ومحمد ابن مزين وعبد الملك بن حبيب وأصبع بن الفرج . كما ظهر شعراء بارزون من مثل ابن الحسين التميمي وابنته حسانة وتمام بن علقمة ويحيى بن الحكم بن الغزال ، سفير عبد الرحمن الأوسط إلى الدانمرك وبغداد والذي أشد الناس من شعره وزعم أنه لأبي نواس فلم يشك الناس في ذلك بالاضافة إلى محمد بن يحيى القلقاط وابن عبد ربه .

في فترة الأمراء والخلفاء هذه كثرت حركة الناس بين المشرق والمغرب من حملة العلم والأدب والشرع وطلابهما بالإضافة إلى التجار . وكان القادمون من الاندلس والمغرب أكثر عدداً من الذاهبين إلى الاندلس بسبب الحج كما كان القادمون طلاباً وكان الذاهبون من كبار العلماء والأدباء . كانت الاندلس لم تستكمل شخصيتها بعد فكان النموذج المشرقي هو المثل الذي يحتذى ويقلد لا في الإنتاج الفكري فقط، ولكن في نمط الحياة . وقد وضع ذلك عند مجيء زرياب المغني المشرقي إلى الاندلس فقد أضحى ، في شرابه وطعامه وملبسه وطريقة تصنيف شعره رمز النوق الرفيع في قرطبة . وعلى منهج التقليد ظهرت أعداد من المؤلفات الأدبية التي كانت تجمع معظم مادتها من إنتاج المشرق، وتحاكي المشاركة . وحين اطلع ابن العميد في بغداد على العقد الفريد لابن عبد ربه معد أن أجهد نفسه للحصول عليه : أغلقه . وقال : هذه بضاعتنا ردت إلينا ! وهذا ماجعل المشاركة ينظرون في نوع من الاستعلاء الذي كان يتألم منه الاندلسيون إلى إنتاج تلك البقاع بقول ابن حزم :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب !
وقد كانت هذه النظرة ظالمة في أحيان كثيرة. فالتجديد الشعري الذي ظهر في القرن الثاني مثلاً في المشرق تجاوزته تجديد شعري اندلسي ظهر منذ أواسط القرن الثالث هو فن الموشحات الذي ابتكره مقدم ابن معافى القبري (المتوفي سنة ٣٠٠ / ٩١٢) والذي يصاغ على نظام جديد للقوافي والاوزان ونسق جديد لتوالي الأبيات يختلف عن نظام القصيدة العربية . ويمزج العربية بشيء من اللغة الدارجة أحياناً وبشيء من اللهجة الرومانسية (لغة المولدين والمستعربين) . يضاف إلى هذا أن ملامح الشخصية الاندلسية كانت تتضح باستمرار في الفقه كما في الفلسفة، وفي اللغة والنحو، كما في الجغرافيا والرحلات وفي التصوف كما في علم النبات .

ولا تقل شخصيات الأدباء والعلماء واللغويين والمحدثين والفقهاء والموسيقين التي برزت في القرن الرابع ، قرن التألق الاندلسي عن زملائهم الذي عاشوا العصر نفسه في المشرق . تقدم الحضارة المادية الواسع سمح بالغناء الفروق في الشأن بين علماء الجناحين المشرقي والاندلسي من العالم الاسلامي وإن ظلت الاعتبارات الأثنية تلعب دورها . وهكذا ظهر في هذا القرن ابن هانيء الأندلسي، متبني المغرب والزبيدي اللغوي. وظهر عدد من المؤرخين الكبار الرازي وابن القوطية والخشني وابن حبيب وفي النحو أبو الشلوبيني وفي الزجل ابن قزمان وفي العمل الموسوعي ابن عبد ربه وفي الأدب أبو علي القالي المهاجر من المشرق وابن الجسور وفي المعاجم محمد بن أبان اللخمي ، وفي التراجم وتاريخ الأدب محمد ابن هشام المرواني وابن مغيث الأنصاري ومطرف بن عيسى الغساني

وابن فرج الجناي وعلي بن عبد المحسن الفتوحى وابو بكر عبادة ابن ماء السماء وفي الجغرافيا محمد بن يوسف الوراق والأخوة أو ابناء العم المغربون الذين غادروا لشبونة يستكشفون بحر الظلمات (الأطلسي) فجزروا من بحر غليظ الموج خمسة وثلاثين يوماً نحو الغرب ومثلها نحو الجنوب حتى نزلوا بجزر (لعلها جزر كناري) وقبض عليهم أهلها وأوصلوهم معصبي الأعين إلى شاطئ موريتانيا . . .

كما كان هناك ممثلون للمذاهب الإسلامية مثل بقى بن مخلد الشافعي ومن يدعون للباطنية أو النحل الخارجية. أو الاعتزال كأحمد الحبيبي وأبي وهب القرطبي . . . ويتميز عباس ابن فرناس المتوفي سنة ٢٧٥ / ٨٨٨ لا بأنه أول من أدخل الموسيقى الشرقية فقط إلى الأندلس بعد زرياب المغني ، ولكن بأنه أول من عمل الزواج من الصخور في الأندلس وصنع في منزله قبة على هيئة السماء بنجومها والبروق وأول رجل حاول الطيران بطريقة علمية ولو أنه ذهب ضحيته . وكان الزهد والتصوف شائعين . وخلال ذلك بالطبع كانت علوم الدين الأولى فقد برز في القراءات أبو عمرو الداني وفي تفسير القرآن بقي بن مخلد وعثمان ابن محمد بن محاسن . وفي الفقه يحيى بن مزين ومحمد بن أحمد العتيبي وقاسم بن أصبغ البياضي ويحيى بن عبد الله الليثي وقاضي اشبيلية محمد بن يحيى المعروف بابن الحذا وابو عمر أحمد ابن مريول المعروف بابن العفيف وأبو عبد الله محمد بن عتاب. وقد اتبع المذهب الظاهري وبرز فيه ونشره ابن هلال عبد الله بن محمد والمنذر بن سعيد البلوطي. وعلى الرغم من نظرة الريبة التي كان ينظر بها إلى علوم الأوائل ومن البطء في تطورها وتقدمها لهذا السبب نفسه، فإن الفلسفة كان لها سبقها . وقد ظهر في

ميدانها ابن مسرة ومدرسته ، كما ظهر في الدراسات الرياضية والفلكية احمد بن نصر ومسلمة بن حاتم القرطبي ومسلمة المجريطي اقليدس الاندلس ، وتلميذه أبو القاسم بن السمح وبرز من الأطباء ابن عبدون الجبلي، ومن علماء النبات حمدين بن أبان وخالد بن يريد النصراني . وترجم كتاب ديوسقوريدس في الطب الذي كان له أثره الحاسم في مجرى دراسات الطب والنبات في الاندلس ، وعرف بالصناعة الطبية ابناء يونس الحراني أحمد وعمر أيام المستنصر واختصاصه به. وأكبر نباتي ظهر في عصر الخلافة هو أبو داوود بن جلجل طبيب هشام المؤيد وصاحب كتاب تاريخ الحكماء. على أن أعظم رجال الطب في هذا العصر هو ابو القاسم الزهراوي الجراح الذي ظل كتابه في الجراحة ينسخ وينشر حتى القرن التاسع للهجرة ويليه زان لم يشتهر مثله ابو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن الكثاني .

وقد رأى اليهود من التسامح والفرص في هذا العهد ماجعلهم يبرزون بدورهم في دنيا العلم والثقافة فمنهم حسداي بن شبروط في الدراسات التلمودية ويهودا بن داوود واضع النحو العبري .

هذه الجمهرة الواسعة من رجال الشعر والأدب والفقه والعلوم والنبات منحت عصر الإمارة والخلافة تألقه وعبرت عن مدى تفتحه وعن القوى الفكرية الكامنة فيه . كما تجاوبت في الوقت نفسه مع ازدهاره الاقتصادي وقوته العسكرية والسياسية وكان طبيعياً أن تتفتح ليعتبر العصر كله عصر تكون حضاري نام ومتزايد ، حي . فهي خلاصته ووجهه الحقيقي، ولون أساسي من ألوان نشاطه وعناصره المكونة .

ويتجلى مجد القرن الرابع الاندلسي في أن «كل فرد في الأندلس الإسلامية تقريباً كان يحسن القراءة والكتابة» . وعملية التنوير العام هذه

تكشف مدى رغبة الجماهير بالعلم . كما تكشف عن وجود الامكان المادي لديهم كي ينفقوا على تعليم ابنائهم وعن استطاعتهم الاستغناء عن انتاج هؤلاء الأولاد لفترة من الفترات يتعلمون فيها . أما على المستوى الأعلى فقد سبق عبد الرحمن الثالث خلفاء المشرق والفاطميين معاً حين تبنى عمليات التدريس في جامع قرطبة، وتعيين المدرسين فيه وأجرى مفتتحاً بذلك « جامعة » سبقت بوجودها قيام « جامعة الأزهر » بعشرين سنة وقيام المدرسة النظامية في بغداد بمائة سنة . ولم يعاصره في مثل ذلك العمل الا مدارس نيسابور . وقد قصد العلماء والطلاب جامعة قرطبة لا من اسبانية فقط ولكن من غرب اوروبا وايطالياً من المسيحيين، ومن افريقية (تونس)، ومن المشرق . ثم وسع الحكم ابنه ، ذلك الخليفة العالم ، حلقات التدريس في الجامع واستدعى لها الشيوخ المدرسين من المشرق وأجرى عليهم المرتبات كالفقيه البغدادي إني على القالي صاحب الأمانى والمؤرخ ابن القوطية وغيرهم . وقد تنافس الناس في تلك الفترة في اقتناء الكتب . على مذهب الحكم — فكثرت المكتبات الخاصة وعلى رأسها مكتبة الحكم نفسه التي بلغت عدة مجلداتها اربعمئة ألف مجلد وبلغت فهارس الدواوين الشعرية فيها فقط أربعة وأربعين فهرساً كل فهرس في عشرين ورقة . ويقولون إن الحكم قرأ ما في مكتبته جميعاً وعلق عليها بالخواشي كما جعل المكتبة كلها دارنشر. وبلغ من شهرة بعض المدن بهذا كله أن قال ابن رشد يرد على ابن زهر مفاخرأ : « إذا مات عالم باشيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى أشبيلية . . . »

بهذا كله بلغ عصر الامارة والخلافة في الاندلس أوج ازدهاره

ومجده .

ملوك الطوائف والعهد المغربي

يعتبر المؤرخون القرن الخامس ، من تاريخ الاندلس ، قرناً مظلماً أسود لأن المملكة الاندلسية تناثرت مزقاً تزيد على العشرين. ويسمون هذا العصر بعصر ملوك الطوائف . ففي كل مدينة دولة ولكل مقاطعة حدود وبلاط ورجال . وقد دام ذلك حوالي ثمانين سنة . وانتهى باحتلال القوة التي ظهرت يومذاك في المغرب للأندلس واكتساحها هذه الدويلات أو معظمها . والواقع أن هذا القرن لم يكن — فيما عدا الأوضاع السياسية — يقل عن القرن الذي سبقه تألقاً وحضارة وغنى ولعله كان من الناحية الثقافية وفي الغنى التجاري أخصب منه . ولكن المؤرخين يزنون هذا العصر بالميزان السياسي فحسب . ويجب أن يوزن من جميع نواحيه . وعند ذلك تنكشف قيمته . صحيح أن الغزوات فيه انتهت . وبدأت بالعكس الهجمات النصرانية المعاكسة . وصحيح أن القوى المغربية الفتية والمجاربة تسلطت على الاندلس بسبب ضعفها وعدم قدرتها على التحرك . لكن ذلك إنما تم بسبب ضعف القوة المركزية في قرطبة وتمزقها . وقد توزعت القوة الاقتصادية بين المتنفذين في المدن والمرافئ والمقاطعات وكانت بسبب استمرار حركة الانتاج والتجارة على نشاطها ، كافية لإقامة أكثر من عشرين بلاطاً بدلاً البلاط الواحد

ولتمويل أكثر من عشرين أميراً بما يحبون من نفقات الإعمار وتشكيل الجيوش وإجازة العلماء وتسديد كافة نفقات الملك . ولعل السبب العميق لظهور هذه البلاطات والطوائف المتعددة هو بالضبط هذه الوفرة في الموارد، فقد سمح ذلك لكل طامع بأن يحقق مطمعه على حساب المركز الذي انهار منذ مطلع القرن مادامت القوى الاقتصادية الناشطة لا تسمح بأن تقدم له كل الإمكان. ولكي يساند المتنفذون مطامعهم الشخصية عادوا إلى العصبية الأولى فأيقظوها من عرقية ودينية واجتماعية . فقام في الاندلس الوان من العلاقات المعقدة اشترك فيها حتى الدول الشمالية النصرانية مدأً وجزراً . فما قامت الدولة المرابطية في المغرب حتى كان تطلعيها الأساسي إلى هذه الدول الضعيفة في الاندلس ، فاحتلتها بكل بساطة ، في عمليات حربية ظاهرها التقاذ والغيرة على الاسلام وإن كانت لا تخلو من الفكرة التوسعية .

كادت الدولة العامرية تشكل في قرطبة ماضكلته الدولة البويهية في بغداد ونعني وجود سلطة دينية تتمثل في الخليفة وسلطة تصرف أمر الدولة تتمثل في العامرين وبخاصة بعد ان توالى بعد المنصور ابنه المظفر على منهاجه في صون وحدة المملكة وحفظ هيبتها ست سنين حتى مات . ويرجحون بأن أخاه الذي تلاه عبد الرحمن هو الذي سمه. لكن هذا الرجل لم يكن جديراً بآثار جده وأبيه وكان الناس يسمونه شنغول (أي شائغة الصغير لأن أمه كانت ابنة شائغة ملك نافارا) ونقموا عليه حين طمح إلى تولي الخلافة واستصدر من الخليفة هشام المؤيد كتاباً بمنحه ولاية العهد . وانتهر محمد بن هشام أحد أحفاد الناصر غياب شائغة في الشمال فأعلن الثورة في قرطبة. ولكن شائغة بقي على عناده وكبريائه وهو عائد . حتى إذا وصل قرب العاصمة رأى جنده ينفض معظمهم عنه. وقبض عليه

وقتل . وانتهت به الدولة العامرية لتعقبها فتنة لا تبقى ولا تذر . فقد تدفق العامة النهابون على الزهراء فأتوا عليها نهباً وحرقاً وهدماً فصارت أثراً بعد عين في حين أجبر الخليفة هشام على التنازل

تسمى محمد بن هشام الخليفة الجديد بالمهدي ولكنه لم يكن كاسمه مهدياً أبداً .

— فقد كان الغنى الواسع الذي تمتعت به قرطبة يقابله في قاع المجتمع فقر فاحش . الطبقات المحرومة التي كانت تتجمع فيها يجتذبها سمعة الغنى والرفاه كانت تنتظر فرصتها، كما كانت في بغداد . فلما اندفع بها محمد بن هشام لهدم الزاهرة ونهبها لم يستطع إلحامها بعد ذلك. لاسيما بعد أن اعتبرت تنصيب الخليفة الجديد نصراً لها. ورأى هذا الخليفة فيها قوة له فأعتمد عليها . وبين المزامر والملاهي والأفراح العامة اندفع جند العامة يتجاوزون على القواد والوجوه وينهبون بعض دورهم مما جعل الطبقة العليا والموسرة تنكمش عن المهدي .

— ثم إنه أعلن موت الخليفة السابق هشام المؤيد وأتى بجثة تشبهه وشهد له بعض الشهود بذلك .

— وكسب عدااء العامريين حين أسقط منهم من الجيش نحواً من سبعة آلاف اتجهوا إلى شرق الأندلس .

— وأعلن بغضه للبربر وسكت عن نهب بعض الدور لزعمائهم .

بالإضافة إلى قسوته مع خصومه وجعل جماجمهم أحواضاً للزهور ...

وهكذا تشكل من هؤلاء جميعاً حزب معاد — انضم إلى منافس

له من أبناء عمه. لكن المعركة بين الاثنين انتهت بانتصار المهدي . مما

أشعل الفتنة بين البربر والعامة في قرطبة وكانت مذبحه بشعة خرج البربر اثرها إلى الثغر . واتخذوا من بعض الأمويين خليفة لهم بايعوه على أمل العودة إلى قرطبة وعزل المهدي . لكنهم قاسوا أثناء عودتهم من الشمال أقسى المجاعة حتى اقتاتوا بحشيش الأرض لأن صاحب طليطلة الموالي للمهدي هدد بالقتل والمصادرة كل من يحمل إليهم طعاماً ! واندفع الطرفان يطلبان مساندة صاحب قشتالة لهم (وتسميه المصادر ابن مامة) فاختار أن يساند البربر الذين تخلوا له عن بعض المدن وهزموا في موقعة دامية (محرم سنة ٤٤٠) جيش المهدي . ثم لاحقوه إلى قرطبة . فهزموه هزيمة نكراء وأعملوا السيف في جيشه . حتى ليقال إن عدد القتلى بلغ عشرة آلاف من أخطا الناس . ولم تنفع المهدي أنه عاد فأظهر للناس هشاماً المؤيد حياً من جديد . . . فقد تمسك البربر بسليمان بن الحكم الذي تلقب بالمستعين . وهرب المهدي إلى طليطلة يستعد للعودة وظهر بوضوح أن الحرب الأهلية قد اندلعت . . .

أعقبت هذه الفتنة موقعة الثالثة بين الفريقين استعان فيها المهدي بالتصاري الذين كونوا ربع جيشه . فهزموا سليمان وجيشه البربري حتى أوصلوهم إلى الجزيرة الخضراء ثم كانت موقعة رابعة وخامسة . وكان الرهان على احتلال قرطبة !

في تلك الحرب الأهلية كان المحرومون وحدهم هم الراجحون لأنهم نهبوا مدينة الزهراء بكاملها . وسلبوا جامع قرطبة حتى قناديله والمصاحف وصفائح الأبواب . وحاصر البربر بعد ذلك قرطبة وقطعوا عنها المؤن فاندعت الأقواث وجاءت السيول فخربت جوانب عدة منها ثم دخلوها فنثروا فيها الاشلاء والخراب والدماء . . . في هذه الحرب

ومارافقها من موجات السلب والنهب توالى على الخلافة تسعة خلفاء خلال اثنين وعشرين سنة ثلاثة منهم تولوا الخلافة اكثر من مرة . وربما كان عبد الرحمن الخامس أفضلهم حكماً لكن بعضهم لقي أسوأ المصير كالمستكفي . على أن أعجبهم أمراً كان الأول هشاماً المؤيد فقد مات ثلاث مرات ! وأحبي مرتين ! وحجز في قصره ثلاثين سنة ! وكان ضعفه الطفولي سبب معظم الكوارث . فلما جاءت سنة ٤٢٢ / ١٠٣١ وصل الخليفة الأموي هشام الثالث إلى حال تستدعي الرثاء لأنه سجن وكان يشحذ كسرة الخبز لطفلته ويدفع عنها البرد بنفسه . واجتمع الوزراء وقرروا إلغاء الخلافة الأموية . وحكم قرطبة المنهكة جماعة من كبار المدينة حكماً أو ليغاركياً يقوده ابن جهور .

قبل أن تسقط الخلافة الأموية بزمن كان التفاوت الطبقي قد فعل فعله . كانت جماهير الشعب قد ملت كثرة الخوصومات والقتال وتبدل الحكام . وقد اشتاقت الاستقرار . فانتهازها كبار الوجهاء والقواد فرصة للاستيلاء على السلطة وهكذا بدأ كل مترعم يوطد لنفسه . وأول هؤلاء كان بنو حمود الذين اختطفوا الخلافة قبل سقوطها بكثير . وكان لهم نسب إلى علي بن أبي طالب ولو أنهم من البربر فتوالى منهم في حكم قرطبة ثلاثة هم علي والقاسم ويحيى بين سنتي ٤٠٧ / ١٠١٦ و ٤١٨ / ١٠٢٧ .

سقطت خلافة الأمويين ولم يكن قد مضى على عهد ازدهارها زمن المنصور وابن أبي عامر ربع قرن والاسباب كامنة في هذا الازدهار نفسه وفي التعقيدات التي نشأت عنها . ومن تلك الاسباب :

١ — أرهق هذان العاهلان ميزانية الدولة رغم غنى مواردها

وتوفر التمر في القاعدة الاقتصادية التي تقوم عليها بالغزوات والحروب المتكررة ، وبشراء الصقالبة ثم اصطناع المرتزقة من البربر ، بالإضافة إلى ما أنفق في بناء مدينتي الزهراء والزاهرة. وما احتجته لناصر والمنصور أيضاً من المال لأنفسهم من دافعي الضرائب الذين يرهقون ويتذمرون من كثرة الالحاح المالي واستمراره .

٢ - كما أن هذين العاهلين قد دمرا بأيديهما القاعدة العصبية التي تقوم عليها الخلافة وهي القاعدة العربية مع أنهما عربيان . واعتمدا بسبب حذرهما من توثب العرب على الصقالبة ثم على البربر وأوسعاهم في الدولة المكان العريض الذي زاد من أطماعهم ومن إدلالهم فيها ومن تطاولهم بعد ذلك حتى على الخلفاء ولم يعتمد هؤلاء الخلفاء سياسة التوازن بين العناصر المختلفة التي يتكون منها المجتمع الاندلسي بل زادها الناصر وابنه بالصقالبة الذين كان زعمائهم في عهده ستة فصاروا في عهد أبنه عبد الملك ستة وعشرين ولعبوا في قرطبة دور الحرس الامبراطوري في روما القديمة ودور المماليك عند انهيار السلطة العباسية إثر المتوكل .

٣ - عدم اندماج هذه العناصر بعضها مع بعض رغم تعايشها ثلاثة قرون. ولم يكن ذلك فقط بسبب سياسة الخلفاء فحسب. ولكن بسبب البيئة الجغرافية أيضاً ، فقد توضع المجموعات البشرية بسبب تجمعها وعصبيتها في أماكن محددة فكان العرب في قرطبة ومنطقتها ، وكان العنصر الغالب على اشيلية وطيطة من المولدين . واكثرية غرناطة وقرمونة ومالقة من البربر . ولم يتح لهم تكوين مجتمع واحد متماسك لأن الحواجز الجغرافية كانت تقوم بين هذه التكتلات. وكان قحواؤها ، في ذلك الزمن صعباً. كما كانت لكل مجموعة نوعية من الاقتصاد

المعيشي مختلفة عن الأخرى . ولكل فئة تطلعاتها السياسية التي تخمد بها القوة المركزية ولكنها لا تلغيها . وتركها قابلة للثورة عند كل ضعف .

٤ - ولم يمر القرن الخامس / ١١ م ، دون أزمات اقتصادية تختلف في حدتها بين الضيق وبين المجاعة . وإذا لم تكن الطبقات العليا في المجتمع تتأثر منها بوضوح فإن الطبقات الدنيا وبخاصة في المدن الكبيرة كانت تدفع غالباً ثمنها سواء من إجهادها أو من أمراضها وموتها . ولعل أقسامها تلك الأزمة التي استمرت ما بين سنتي ٤٣٠ - ٤٥٠ / ١٠٣٨ - ١٠٥٨ ووصلت شدتها في بعض المناطق درجة أكل الميتة من الدواب ، وأكل الكلاب . كما أقفرت أقساماً من الريف الزراعي .

٥ - دور الدول الشمالية النصرانية في نصرة المتنازعين على السلطة مرة بعد أخرى . فقد كان هم هذه الدول الشاغل إضعاف القوة العربية الإسلامية بأي طريق . وقد قدم لها المتنازعون من جميع الأطراف أفضل الفرص للكسب عن طريقهم توسعاً في الأرض واحتلالاً للمدن وشراء بالمال مما يسمح لممالك قشتالة وليون خاصة بالتدخل في أخص الأمور الداخلية للدولة وفي اختيار الخلفاء .

قبل الانهيار النهائي للحكم الأموي كان الأمراء والحكام في نواحي البلاد يعدون أنفسهم للانفصال . وبلغت ببعضهم الدعوى أن أعدوا العدة ليرثوا الخلافة نفسها . وإن كان بعضهم من جهة أخرى قد حاول أن يشد إليه رداء الشرعية بالتستر وراءها ولو بالبهتان . فلما أعلن انتهاء الأمويين تمزقت الدولة على الفور - إن لم تكن تمزقت من قبل - أقاليم ومدناً ففي كل ناحية دولة وأمير . كما لو أقيمت طبقاً من الصيني إلى الأرض . أطبق كل متنفذ على ما بيده وأقبل يطلب على حساب الآخرين

المزيد. أكثر من ستة وعشرين دولة تنازعت أرض الاندلس . فلذلك طائفة قطعة. وهذا ما سماه المؤرخون بملوك الطوائف . وبصورة عامة استبد الصقالبة بالسلطة في جميع المدن الشرقية في حين ذهب البربر بسلطان المدن في الجنوب. وكان للعرب الباقي مثل اشبيلية وسرطسطة وطليطلة وبطليوس واختلفت مساحات هذه الدول كما اختلفت مواردها الاقتصادية وسياساتها ولم تنفع صيحات أهل الفكر من علماء الدين وأصحاب الاقلام في إيقاف هذا التردّي السياسي . وغر الأمراء الغرور منهم فكانوا :

ألقاب مملكة في غير موضعها كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد !

وليس يفيد أن نقف عند هذه الدول واحدة واحدة . ولكننا يجب أن ننظر إلى ما تفعله الوفرة الاقتصادية عند انحلال السلطة التي تجمعها وتوجهها . فقد ظهر بكل دولة بلاط مصغر يجمع من الضرائب ما يكفي لتمويل مشاريعه أو لفيض منها ما يكفي لتمويل أعماله الحربية والعمرانية ولإسباغ العظمة والسمعة عليه . وتأقلم الجو الاقتصادي – الاجتماعي بسرعة مع هذا التغير الذي يرضي عصبية المجموعات المختلفة في أقاليمها . ويسمح بهامش واسع أو ضيق للحروب والتراعات بين هذه الدول الصغيرة . وللحرب أو للاستعانة بدول الشمال النصرانية ، ولإغداق الجوائز على الشعراء أبواق الدعاية والمنح للعلماء مرضاة للشعور المدني . وهكذا كان التردّي سياسياً فحسب كما جرى في خلافة بغداد في القرنين الرابع والخامس . أما الحركة الاقتصادية والنشاط العلمي والعمل العمراني فظل على حاله من الانتاج والعطاء .

تسلم الحكم في قرطبة بنو جهور حوالي أربعين سنة . وكانت غرناطة

عاصمة بني زيري البربر ثمانين سنة . أما مالقة ومأجورها فقد استبد بها بنو حمود اربعين سنة . وقام في طليطلة بنو ذي النون البربر نصف قرن . وفي سر قسطة ولاكثر من قرن قام بنو هود . وفي حين تراجعت قرطبة عن المركز الأول بين مدن الاندلس برزت اشبيلية واحتلت هذا المركز بحكامها من بني عباد اللخمين . و السبب أن طريق التجارة الأساسي صار يمر بها بعد أن دهمت قرطبة الكوارث المتتالية . وفقدت مكانتها بوصفها عاصمة للدولة . بالإضافة إلى أن رقعة اشبيلية التي آلت إليها كانت اكبر ومواردها أوفى .

في ذلك الحين الذي أقام فيه الحكام الآخرون دولاً لأسرهم في المناطق التي وجدوا فيها تميزت كل من اشبيلية وقرطبة بنظام من الحكم شبيه بالجمهوري أو الأوليغاركي . فقد كانت الأسر العربية في هذين البلدين قوية وتشكل طبقة ذات نفوذ ورجال . ولم يشأ أبو الحزم جهور بن محمد أن يتحداها وهو يرى ما آلت إليه التنافس . على الحكم من حروب وقتل وفوضى . فعمد مع القاضي أبي القاسم بن اسماعيل بن عباد الذي ظهر في اشبيلية . وكل منهما بمفرده ، إلى اشراك هذه الأسر نفسها في الحكم خشية انتفاضها ورغبة في وضع حد للفوضى والتنافس . ولم يكن الناس قد اعتادوا هذا النوع من الحكم فاستغربوه بادىء الأمر ثم انصاعوا لإرادة أبي الحزم في قرطبة . فأشركوا معه اثنين اختارهما بنفسه لإقامة ما يسمى بحكم الجماعة وشكل وزارة تساعد في تسيير الدولة . وأقام للاستشارة مجلساً من الوجهاء المحترمين في المدينة . يرجع إليه الرأي وتسمى بعמיד الجماعة . ولم يقبل حتى بأن يغير مسكنه أو يتسلم بيت المال . وفعل الشيء نفسه القاضي ابن عباد صاحب اشبيلية الذي أشرك معه

في الحكم بعض الوزراء ومجلساً من الاعيان . وظهرت بذلك نواة الحكم الديمقراطي بين عرب الاندلس . لكن الحكام الآخرين من هاتين الاسرتين عادوا إلى الشكل التقليدي من الحكم لأن التفرد فيه أغراهم كما لم تشع الطريقة الجديدة بين الحكام الآخرين .

وقد تنافس كل من البلدين على محاولة إحياء الدولة بتوحيد أجزائها . لكن بني جهور لم يكونوا من الموارد بحيث يملكون القوة العسكرية الكافية . عدا أن أبا الحزم وابنه الوليد (٤٢٢ - ٤٥٦ / ١٠٣١ - ١٠٦٣) كانا يميلان إلى السلم . وأما العباديون فقد سمحت مواردهم بإقامة قوة عسكرية جعلتهم أقوى دول الطوائف وأهمها . وتوسعت مملكتهم بالاستيلاء على عدد من إمارات الطوائف الأخرى . ومن جملتها قرطبة نفسها سنة ١٠٧٠/٤٦٢ . لكن الثورات المتوالية كانت ترهقهم ، وبقاء عدد من ممالك الاندلس مستقلاً بعيداً عن سيطرتهم ، والتوغل النصراني السريع في امارات الشمال الاسلامي ، كل ذلك حرم العباديين من إعادة الوحدة لدولة الاندلس ومن إحيائها .

كان العباديون أسرة مثقفة من الأسر البارزة في اشبيلية حكمتها بين سنتي (٤١٤ - ٤٨٤ / ١٠٢٣ - ١٠٩١) . وقد تصدى محمد بن عباد للدفاع عن مدينته ضد بني حمود أصحاب مالقة ، ولم يكن أكثر من قاض في البلد . لكن الأسر المتنفذة سلمته الحكم فأداره على أساس شبه جمهوري محاولاً أن يخلع على حكمه الصفة الشرعية ، عن طريق اعتراف أموي به ، زيف من أجله آخر الخلفاء الأمويين هشام بن الحكم المفقود . وحين توفي سنة ٤٣٣ تولى الأمر ابنه ابو عمرو عباد بن محمد الذي تلقب بالمعتضد . (٤٣٣ - ٤٦١) وآنس من نفسه القوة على التصرف بمنهج الخلفاء فألغى

مجلس الوجهاء وقضى على خصومه بقسوة جبارة . وأخذ يتحاشى بالمناورة البارعة هجمات ملك قشتالة وليون الذي كان همه النضال العنيف ضد المسلمين . وتلاه ابنه ابو القاسم محمد بن عباد الذي تلقب بالمعتمد (٤٦١ — ٤٨٤) ولهذا الأمير سمعة واسعة في الأدب والسياسة بسبب شعره والمأساة التي عاشها .

ورث المعتمد دولة عريضة نسبياً تكاد تنتظم الجنوب الغربي كله من الأندلس . ثم وفق إلى افتتاح قرطبة أول مرة سنة ٤٦٤ . ثم تركها بعد أن تحالف أحد المطالبين بحكمها مع أمير طليطلة . ومات فيها ابنه عباد الذي كان يحكمها . وهو ما يزال في صغيراً . زقد ثار المعتمد لابنه سنة ٤٧١ باستردادها . كما انتزع من أمير طليطلة الأقسام الجنوبية من ممتلكاته . لكن هذا النجاح ، في إطار التوحيد للدولة ، قابله خطر داهم من ملك قشتالة ليون الفونس السادس (ابن فرديناند) الذي احتل سنة ٤٧٨/١٠٨٥ طليطلة من بني ذي النون بعد حصار خمس سنوات . قاصداً بذلك ظهر الأندلس باستيلائه على هذه المدينة ، وهي خط الدفاع الثاني ومفتاح الشمال كله والمطالبة بما كان انتزعه المعتمد من أملاكها . ولم يكتف بذلك بل زعم وقوع إهانة على جابهيه اليهودي وانذفع في غزوة لمملكة اشيلية بلغت الشاطئ الجنوبي للأندلس عند جزيرة طريف . واضطر المعتمد إلى أن يدفع الجزية لألفونس كما كان يدفعها لأبيه من قبل .

كان هذا أول وأقصى تحد نصراني عرفه الحكم العربي في الأندلس منذ الفتح . وإذا لم يجرؤ الفونس على الاحتفاظ بشيء من الأراضي التي غزاها فقد استبان في عمله ضعف أقوى أمراء الطوائف على الأقل . وانكشف للناس الخطر الذي تمثله القوة النصرانية المتحفزة . فقد دقت

باحتلال طليطلة قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين اسفينساً في قلب الأندلس
يفصل شماله عن جنوبه ويمهد لتصفيته النهائية . وقد عبر عن ذلك الشاعر
الطليطلي المعاصر ابن العسال قائلاً :

شدوا رواحلكم يا أهل اندلس فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

كان المعتمد فناناً شاعراً كآبيه ولقد بزّه في مضمار الأدب وإن لم
يزه في مضمار النساء . ولم يجتمع بباب أحد من ملوك الطوائف ما اجتمع
على باب قصره من الشعراء . وتمتلىء كتب الأدب بأخباره وأخبار جاريته
وزوجته اعتماد الرميكية وأخبار حفلاته وأنسه . وعلى الرغم من ذلك فإنه
لم يكن غافلاً عن الزحف الإسباني ضده لاسيما حين أضحى الفونس
طاغية الشمال وتوجدت تحت حكمه مملكتا ليون مع جليقية ونافار اللتين
استولى عليهما . وتسابق أمراء الطوائف في السعي لكسب مودته . واتخذ
لنفسه لقب الامبراطور . ثم جاء ابنه من بعده فزاد في ألقابه لقب « ملك
ابناء الديانتين » وتوالت الغارات الشمالية على أراضي بني عباد حتى بلغت
قادس في أقصى الجنوب . وزاد الخطر والخرج .

كانت هذه المملكة النصرانية تقوى وتتوحد باقتسامها وحدها معظم
موارد التجارة وحركة الذهب السوداني المتجه إلى أوروبا والذي سمح
للممالك الفرنجية ، ولأول مرة ، بصك النقود الذهبية ، في حين كان ملوك
الطوائف الممزقين يخسرون بتقسيم تلك الموارد بينهم ، وإنفاقها على القوى
المبعثرة والبلاطات المتعددة والعظمة الفارغة . وفي هذه الغمرة ظهر بين
نصارى الشمال فارس مغامر من قشتالة عرفته القصص باسم السيد فأرهقي

مملكة اشبيلية بغاراته حتى غدت أساطير تروى ودخل اسمه دنيا الملاحم .
وتلفت المعتمد يريد سنداً فلم يجد سوى القوة الاسلامية التي ظهرت
في تلك الفترة وراء العدو . واستولت على معظم المغرب . وهي قوة
المرابطين . فقرر الاستنجاذ بها . وحين حذروه أن ملكه سيكون الثمن
قال : خير لي أن أكون راعي جمال في افريقية من أن اكون راعي
خنازير في قشتالة !

وبعث يستجير !

كانت الدولة الشمالية النصرانية قد أخذت تسمى تحدياتها العسكرية
وانتصاراتها ضد ملوك الطوائف « بحرب الاسترداد » . وقد شجعها
تمزق دولة الأندلس على ذلك ، وعلى رسم هذا الهدف العريض والبعيد
أمامها . لكن هذه الحروب لم تكن في الواقع تحمل هذا المعنى الوطني
بقدر ما كانت تمثل الجشع الاقتصادي لدى دول الشمال . ورغبتها في
الافادة من غنى الجنوب الاندلسي في الغنائم وفي الثروة التجارية واستغلال
تمزقه السياسي وضعفه في التوسع الجغرافي ، وما برحت المناطق
الحضارية الغنية هدفاً لتحرك القوى البدائية المجاورة ضدها . فالإغراء
دوماً قائم . وكان رجال الدين بصورة خاصة هم الذين يغذون بنفوذهم
الروحي حرب الاسترداد هذه . وبذلك بدأت في الواقع والتاريخ
ما عرف فيما بعد باسم الحروب الصليبية . إنها لم تبدأ بهجوم الغرب
الأوروبي على المشرق والشام . ولكنها بدأت بالهجوم على أملاك الدولة
الأندلسية وظلت دائرتها تتوسع ويغريها النصر بالمتابعة حتى شملت
صقلية ثم وصلت أخيراً بلاد الشام . وكان لها في كل منطقة اسلامية
شعار تستر وراءه . فهي وطنية في اسبانيا وهي توسعية في صقلية وهي

دينية في الشام لتحرير القبر المقدس مع أنها جميعاً اقتصادية الجذور وإنما قامت لحل مشاكل أوروبا الاقتصادية ولتحقيق أطماعها في ثروة البلاد الإسلامية وبضائعها الثمينة وطرقها التجارية وفي حضارتها المتفوقة .

وقد سبق الحروب الصليبية والصدام القتالي بين نصارى الغرب والإسلام تنافس تجاري عنيف بين أساطيل الطرفين في الحوض الغربي للبحر المتوسط، بما في ذلك القراصنة من الجانبين أيضاً . هذا التنافس . الذي دام طول القرن الرابع / العاشر الميلادي وكان قوامه أساطيل الفاطميين ودولة الأندلس في عهد كل من المنصور والناصر كانت الكفة الراجحة فيه والقوية للطرف الإسلامي . غير أن هذا الرجحان انقلب في القرن الخامس ليصبح في جانب الغرب الأوروبي النصراني . لأسباب عديدة منها :

الأول : انتقال مركز الفاطميين من إفريقية (تونس) إلى مصر . والتنافس مع بيزنطة في الحوض الشرقي للمتوسط .

الثاني : ضعف القوى البحرية للزيريين في إفريقية بعد انسحابهم من صقلية وتغلب النورمان عليها وسيطرتهم على مالطة من جهة وتضخم نفوذهم البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط حتى قال أبو العرب ابن أبي الفرات شاعر المعتمد بن عباد :

البحر للروم لايجري السفين به إلا على غرر والبر للعرب

الثالث : تمزق الاسطون اللدلسي الحربي بين القوى المتعادلة لدى الطوائف مما بعثر جهودها وفعاليتها . يتقابل ذلك زيادة نشاط الاساطيل النصرانية في إيطاليا (بيزا وجنوة) وجنوب فرنسا وتوسع

جشعها التجاري الناجم عن زيادة السكان والتوافر المتزايد للثروة والأطماع لديها . كانت مطالع مايسمى بنهضة القرن الثاني عشر (السادس الهجري) قد بدأت في أوروبا الجنوبية محركة فيها جميع النشاطات حتى وصلت درجة الهجوم على السواحل الافريقية والاندلس والتطلع للوصول بالحرب الصليبية إلى الشام .

في فترة الانحسار البري البحري هذه ووضوح آثارها في الأندلس جاءت استجارة المعتمد صاحب اشبيلية بابن تاشفين في المغرب .

ولم يكن المرابطون بالمقابل في حاجة إلى من يدعوهم إلى الاندلس ليتحركوا إليه . لقد كان هدفاً من أهدافهم . فهو تنمة طرقهم التجارية إلى أوروبا . كما لم يكن المعتمد يعرف أنه بهذه الدعوة قد قضى على معظم ملوك الطوائف مرة واحدة وعلى مملكته معها . فقد كانت روح الشاعر لا السياسي هي التي تغلبه . وجاءته النجدة . وجاءت النكبة — المأساة الشخصية معها .

ومن المفارقات أن الخط البياني الامور الفكرية قد يترافق مع الخط البياني السياسي في الصعود . وهو يصعد ببطء . و لكن لا يهبط معه حين يهبط بل يستمر على الأقل في مستواه الذي وصله طويلاً . ذلك أن السياسة تتعلق بقوة الدول الاقتصادية — الاجتماعية وضعفها . أما الحياة الفكرية والفنية فإنها تتجاوز هذا الحاجز متى انطاق وثبقى — فيما عدا فترات العواصف الجائحة — منتجة مبدعة ، رغم الضعف السياسي . جرى هذا في المشرق كما جرى في المغرب الاندلسي . وهكذا لم تتأثر الحياة الفكرية والفنية في هذا القرن ، قرن الحروب الأهلية والفتن وتناثر الدماء والتمزق والطوائف ، واستمرت على إنتاجها السابق ،

لأنها لم تخسر مقومات وجودها من جدة وتذوق وهواة ، ومن أمراء
يمنحون وجماهير تذوق أهل العلم . وكان ملوك الطوائف كلما تدهور
سلطانهم ازدادوا تنافساً على الشعراء ومدائحهم ، وعلى العلماء وما يحملون
معهم من السمعة ، في نوع من التعويض . وقد وجد الشعراء أكثر من
باب يتفنون عاينه كما وجد العلماء أكثر من بلاط يستقبلهم بالرعاية
والترحاب .

في عصر ملوك الطوائف هؤلاء وجد ابن زيدون الوزير الشاعر
وصاحبته الشاعرة ولادة (بنت الخليفة المستكفي) ووجد قبله ابن دراج
التسلي في قرطبة . وراجت الأشعار والأزجال والموشحات في ظل
بني الأفطس في بطليوس رغم أنهم من البربر في الأصل وقد اضطعنوا
لأنفسهم نسباً عربياً . وتحت جناح آخر ملوكهم عاش عبدون
ابن قرمان (المتوفى سنة ٥٥٥) أبرز زجال عرفته الأندلس . وبرز
المعتمد الأمير الشاعر في اشبيلية . ومعه في بلاطه كوكبة من رجال القافية
كابن حمديس الصقلي ، وابن اللبانة الداني ، وفي غرناطة وصلها من
المشرق أبو الفتوح الجرجاني الفيلسوف الفلكي . وظهر ابن النغدة
اليهودي العالم والذي تسلم الوزارة ، وأبو اسحق الالبيري الفقيه .
وإذا لم تنفد سوق الأدب لدى أمراء الدول البربرية مثل
مالقة والجزيرة الخضراء وقرمونة واستجة ورندة وشريش فقد دخلت
هذه الإمارات وغيرها في حوزة أصحاب اشبيلية . أما شعراء المعتصم
ابن صمادح صاحب المرية فكثيرون رغم صغر الإمارة ومنهم أبو الفضل
البرجي الحكيم الفيلسوف وابن الحداد الوادي آشي ، وأبو عبيد البكري
الجغرافي المعروف ، وفي بلنسية ومرسية كان ابن وهبون المرسي
والأقشي . وفي سرقسطة عاش ابن باجة الفيلسوف الموسيقي الشاعر .

ولم يكن غريباً بعد غروب فترة الأوج أن يظهر المؤرخون الكبار .
وهكذا ظهر أبو مروان حيان بن خلكان أعظم مؤرخي الأندلس ،
ومحمد بن مزين وابن أبي الفياض وأن يتوج هؤلاء بظهور ابن حزم
الفيلسوف الفقيه المؤرخ وصاعد الطليطلي مؤرخ الفكر الفلسفي . وأن
يظهر في الجغرافيا والرحلات الوراق والبكري. وأن يظهر في علم الحديث
أمثال قاسم بن أصبغ وابن القوطية وأبو المطرف ابن فطيس وابن الفرنت
ورزين بن معاوية العبدري وأبو محمد الرشاطي وابن القرطبي المالقي
وغيرهم كثر . ولا نذكر القراء الكبار كأبي عمرو الداني والفقهاء
الكبار كأبي الوليد الباجي وابن عاصم . ولا علماء الرياضيات والفلك
كالزرقاني. غير أن أعظم علماء الأندلس الإسلامية وأخصبهم فكراً
هو دون شك علي ابن حزم . وهو أحد القلائل الذين تفردوا بالانتاج
العقلي الخصب. وقد تقلب في مدن الاندلس ووزر لعبدالرحمن المستظهر
وينسبون إليه ما يزيد على أربع مائة مجلد في التاريخ والفقه والحديث
والمنطق والشعر والعلوم ، والتعداد من بعد يطول ، ولكنه إن دل على
شيء فأنما يدل على أن مسيرة السياسة غير متوازية مع مسيرة الفكر ومع
مسيرة الاقتصاد إلى حد كبير .

وليست هذه على أي حال مجرد أسماء تمر في سجل التاريخ ولكنها
قسم أدبية ودينية وفكرية وراء كل منها سيرة واسعة وتاريخ حافل
بالانتاج والجهد والخصب ، ومن ورائها مئات الاسماء الأخرى تعد
المئات هي التي صنعت تراث الاندلس الباقي ولونه الحضاري الخاص
في اطار الحضارة العربية .

* * *

منذ الفتح حتى أواسط القرن الخامس — كان شمال إفريقيا (من ليبيا حتى المغرب) ، موزعاً بين عدة ولاء دولة اسلامية وكان في أجزائه المقابلة للعدوة ولبحر الزقاق تابعاً لإمارة الاندلس ثم للخلافة فيها. وفيما كان بحران ملوك الطوائف في الأندلس كانت في المغرب الأقصى في أبعد أجزائه الجنوبية تتبلور حركة ضخمة هي حركة المرابطين. ويبدو أن ضعف القوى الاسلامية سواء في المشرق العباسي أو المغرب الأموي ، في تلك الفترة ، أغرى القوى البدوية التركية في المشرق والبربر في المغرب، وهي جميعاً جديدة الاسلام، وعلى مناطقه الهامشية البعيدة، للتحرك إلى داخل المنطقة الاسلامية وإلى مراكزها الهامة . وهكذا دخل السلاجقة ، بدوا وحضراً من السهوب إلى فارس والاندلس والشام في موجة غزو اسلامي واسعة ، ودخل المرابطون الذين تحتلظ في عروقهم بعض الدماء العربية إلى المغرب كله في وقت واحد تقريباً . لم يكن الإغراء دينياً فقط لانقاذ الاسلام من التمزق، ولكنه رغم المسحة الصوفية التي لبسها في المغرب كان ذا طابع اقتصادي واضح سواء في الانسياح وراء طرق التجارة أو في الاستيلاء على الغنائم في المدن الغنية .

وكانت الغزواتان عمليتي هجرة بشرية من جهة وحرباً اسلامية — اسلامية من جهة أخرى . وتفوقت القوى البدوية فاستولى السلاجقة على معظم المشرق والمرابطون على المغرب . واستكملوه بالنفوذ إلى الاندلس. وكانت حركة المرابطين في الأصل أخوية دينية حربية نشأت في قبائل لتونة في أقصى جنوب المغرب على حدود السنغال. وترعمها بعد فترة من ظهورها بنو تاشفين الذين بنوا مدينة مراكش عاصمة لهم سنة ٤٥٥ /

١٠٦٢ . فلم تزل كذلك حتى سقطت دولتهم واتخذوا لأنفسهم لقب
إمرة المسلمين ، معترفين للخليفة العباسي بامرة المؤمنين .

إلى يوسف بن تاشفين (٤٥٣ - ٤٩٩ / ١٠٦١ - ١١٠٦) عاھل
هذه المملكة القوية الجديدة وصلت بعثة الاستجداء تضم قضاة بطليوس
وغرناطة وعلى رأسها قاضي اشبيلية . واشترط العاھل أن يتسلم الجزيرة
الخضراء قاعدة له . لكنه لم ينتظر الجواب فقد استصدر من الفقهاء فتوى
بذلك . وتجرک بجيشه الكبير عابراً العدو سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦ وأقبل
عليه المعتمد ، وجيرائه الأمراء مرحبين طائعين ، في حين كان الفونس
السادس يحاصر سرقسطة . وطلب إليه ابن تاشفين فك الحصار فأبى وتحرك نحوه
حتى وصل بطليوس . ونشبت بين الطرفين معركة كبرى أنزل فيها
أمير المرابطين أشنع الهزيمة بالفونس الذي لم ينج بثلاثمائة من فرسانه
إلا بصعوبة تاركاً وراءه من الجماجم ما كان يكفي لبناء مثذنة .
وأرسل منها عبد المؤمن أربعين ألفاً عبر العدو رمزاً لنصره .. هذه
المعركة التي عرفت بالزلاقة (والتي وقعت في جمادى الآخرة سنة
٤٧٩ / تشرين الأول سنة ١٠٨٦) كانت كافية لأن تهز في الاندلس
كلها الحمية الدينية . وتهز في الوقت نفسه عروش ملوك الطوائف
تحت هؤلاء الملوك . وتجرى ألفونس على إخلاء اقليم بلنسية ورفع الحصار
عن سرقسطة .

وما إن عاد ابن تاشفين إلى المغرب حتى عاد القشتاليون والسيد
الكمبيطور إلى تهديد الإمارات الإسلامية وعجزت بقايا الجيش المرابطي
عن ردهم فاستنجد جميع الأمراء مرة أخرى بابن تاشفين ! وغاد .
ومنذ وطئت أقدامه هذه المرة أرض الاندلس تحولت هذه الدولة إلى

ولاية مغربية . واستمرت كذلك حتى سقطت معظم مدنها بأيدي الفرنجة فلم يبق منها سوى مملكة غرناطة . ودفعت الأرض المغربية بعد المرابطين ، خلال ذلك ، بموجة أخرى هي موجة الموحيدين تكمل عمل المرابطين .

استمر الحكم المرابطي ثم الموحيدي للأندلس (١) مائة وثلاثين سنة كانت الأندلس خلالها ، رغم تبعيتها لمراكش العاصمة هي الاقليم الحضاري الموجه . في حين كان المغرب هو الاقليم الذي يتلقى تأثيراتها الحضارية القوية ويقدم لها الجند المحاربين . لكن تحول الأندلس إلى إقليم تابع لم يمنعه من أن يتابع مستواه الحضاري الذي وصله من قبل بالوتيرة ذاتها وربما بأقوى منها أحياناً نتيجة لتوحده مع المغرب وانفتاح الطرق والموانئ التجارية بأقصى قوتها لابين العلوتين فقط ولكن بين المغرب كله الذي سيطر عليه المرابطون ثم الموحدون وبين الأندلس الذي صار جزءاً من امبراطورية واسعة .

دخل ابن تاشفين ، في غزوته الثانية إلى الأندلس فاتحاً وبحجة الانجذاب . كانت الحملة الأولى قد أقنعت وأقنعت مستشاريه وجنده بأنها أغنى بكثير من أن تترك. وبأن ملوكها أضعف بكثير من أن يقاوموا. وبأن التوسع لن يكلف كثيراً تجاه المكاسب الضخمة التي سيحصلها إليه ضم الأندلس إلى امبراطوريته . كان ذلك سنة ١٠٩٠/٤٨٣ . وقد أنضم إليه مع جيش المعتمد في اشبيلية جيش امراء مالقة وغرناطة

(١) استمر حكم المرابطين جميعاً ما بين سنتي ٤٤٨ - ٥٤١ / ١٠٥٦ - ١١٤٦) وحكم الموحيدين ما بين سنتي ٥٢٣ - ١١٢٩ حتى ٧٦٥ - ١٢٦٨ مع تدخل العهدين أحدهما مع الآخر سواء في المغرب أو الأندلس .

والمرية . ولم يكن ابن تاشفين واثقاً من تضامن هؤلاء الأمراء فتحاشى أولاً الاصطدام مع جيوش قشتالة في انتظار تطور الأمور .

كان الفقهاء والعلماء ذوو النظرة البعيدة والغيرة على الاسلام قد شكلوا بجانب المرابطين قوة ضاغطة على الامراء الضعاف واعتبروا التدخل المرابطي انقذاً إسلامياً للدين . لهذا كان سهلاً على ابن تاشفين أن يحصل من قضاة غرناطة ومالقة على فتوى شرعية بعدم صلاحية ملوك الطوائف للحكم، وبأن تنحيتهم واجب ديني محتوم. وما عليه إثم في نقض العهود التي كان قطعها لهم بالحفاظ على عروشهم . كما حصل على الفتوى ذاتها من علماء المشرق كالغزالي . واكتسح الرجل معظم هؤلاء الملوك واحداً بعد الآخر . الوحيد الذي احتفظ بعرشه هو صاحب سرقسطة لعلاقته الطيبة مع الزعيم المغربي. ثم خسر ابنه هذا العرش حين مات الأب سنة ٥٠٣ / ١١١٠ . أما المعتمد صاحب اشبيلية والذي كان المتحمس للاستنجد بقوة المرابطين. فقد كان أول الضحايا أيضاً له . فقد احتلت إمارته فيما أحتل وسيق هو نفسه مع أسرته إلى المغرب منفياً وسجن في أغمات ، في حال سيئة حتى توفي سنة ٤٨٨ / ٤٩٥ .

كانت الدولة المرابطية أول دولة يقيمها البربر . كما كانت حين بلغت أوجها أكبر دولة أقاموها وتمتد مما وراء الصحراء الكبرى ، في السودان الغربي حتى الجزائر ضامة إليها الأندلس . ولم يكن هذا الانسحاق عسكرياً فقط ولكنه كان موجة بشرية من الهجرة وتحركاً بدوياً صحراوياً باتجاه المناطق الحضارية الغنية . وكان هذا يعني بالنسبة للأندلس الكثير . فقد أنتقل مركز الاهتمام السياسي إلى المغرب وجرى نوع من التبادل السكاني بينه وبين الأندلس، ففي حين كانت تحرك

الشعراء والمثقفين والطامحين إلى المناصب وجموع العلماء والموظفين تتجه نحو مراكز كانت جميع مقابلة من الراغبين في هناءة العيش والخصب والحضارة الرفيعة تتجه نحو الأندلس في حركة مقابلة مما أوجد في الحركة بين القطرين نشاطاً ملحوظاً قوياً .

وموجة الهجرة البشرية كانت في واقعها تعبيراً عن تزايد السكان البربر في المغرب ، وكان من آيات ومن أبرز آثار هذا التزايد كثرة بناء المدن الجديدة هناك ، أو تجديد المدن القديمة المنثورة . فقد أنشئت أو جددت ، في الفترة المرابطية الموحدية ، حوالي ستين مدينة من أصل خمسة وتسعين أقيمت في العصر الاسلامي في تلك البقاع . وكان هذا يعني نقلة واضحة من حياة البداوة والزراعة إلى حياة الاستقرار والتحضّر وتزايد الحرف والتجمعات التجارية في المغرب .

على أن أهم مانجم عن الاحتلال المغربي للأندلس عدا ذلك هو فقدتها لطابع التسامح الديني الذي ميز نظامها السياسي قبل ذلك . كان هذا التسامح ، في الواقع ، اعترافاً بغلبة العناصر المسيحية بين السكان عامة ونوعاً من الادارة الحسنة لأحوالهم والرعاية لمشاعرهم . فالمولدون والمستعربون كانوا الكثرة الغالبة وقد قام التعايش الطيب بينهم وبين العناصر الفاتحة . فلما جاء المرابطون كانت الكثرة في الأندلس قد أضحت للمسلمين سواء منهم العرب أو البربر أو المولدون . ولما كان المرابطون من قبائل بربرية جديدة عهد بالاسلام فقد كانوا شديدي التمسك به. لاسيما وأن حركتهم إنما كانت في الأصل حركة دينية متعصبة ، أسهم الفقهاء في بنائها وفي تصعيد أشواقها الصوفية . فلم يكن غريباً أن تكون كلمتهم فيها هي العليا وأن يكونوا العنصر الضاغط في السياسة

الداخلية والخارجية على السواء . فنقلوا تعصبهم معهم إلى الاندلس . ولم يكن هذا التعصب حرباً فقط على أي نزعة مهما قلت إلى التفرد الديني داخلياً ، ولكنه كان ، في الوقت نفسه ، حرباً على غير المسلمين بالقوة نفسها أو أشد . ولما كانت جبهة الشمال الاندلسي هي التي تمثل هؤلاء كما يمثلهم المستعربون كان بدهياً أن يقود المرابطون ذلك التعصب ضدها . وهكذا نجم عن ذلك سياسة واحدة ذات فرعين ، ولو أنها في الأساس واحدة : فرع للمسلمين يستقيح علم الكلام والفلسف وفرع لغير المسلمين يستريب بهم ويحملهم مسؤولية كل هزيمة ، ومات التسامح التقليدي وحل محله تشدد في الدين ، ناجم عن المقولة التي قال بها الفقهاء، وشاعت بأن تدهور القوة السياسية ناجم عن عدم اتباع تعاليم الدين الخفيف وأن التمسك به هو سبيل النجاة . وقد سلمت الجماهير بها مما سمح للحكم المرابطي بدفع هذه الفكرة للدرجة المحاسبة لكل عالم على فكره. حتى الامام الغزالي أبو حامد الذي استقبل كتابه لإحياء علوم الدين استقبالاً حسناً أول الأمر لما يثيره من توجهات إلى محاسبة النفس صار محل الاستياء بسرعة لأن فيه أقوالاً فسرت على أنها انتقاص للفقهاء ، ولقد أصدر قاضي قرطبة وزملاؤه فتوى شرعية أتهموا فيها هذا العالم المجدد بالبدع والمروق من الدين . فأحرق كتابه علناً في قرطبة وفي عدد من المدن الأخرى على مشهد من الجماهير . وفرضت عقوبة القتل على من يقرؤه .

زادت ، بعد وفاة يوسف ابن تاشفين سنة ٤٣٩٩/١١٠٦ ، نزعة التعصب الديني لأن ابنه علي الذي ورث العرش كان شديد الورع وخضع تماماً لأشواقه الدينية واتخذ خلال حكمه الطويل (٤٩٩/٤٣٨) من

الدين سياسة للدولة . وكما ثقلت وطأة رجال الدين على المسلمين ثقلت بالتالي أكثر من ذلك على غيرهم لاسيما وأن قسماً حسناً من المستعربين كانوا لا يكتمون ترحيبهم بالغزوات النصرانية المتكررة على الأراضي الاسلامية . وكانوا بسبب معرفتهم بالعربية يقدم بعضهم العون لجيوش الشمال . وتنصب النعمة من ذلك على رؤوس الجميع . وقد حرموا أثناء الحكم المغربي من التقاضي أمام بني جنسهم (لدى القومس) . وعرفوا عدداً من القيود التي لم يتعودوها من قبل . مع أنهم كانوا قد استعربوا في اللغة والملابس والكتابة وترجموا الانجيل إلى العربية . وبقيت هذه اللغة لديهم لغة الثقافة والعلم والتجارة فترة طويلة بعد زوال الحكم الاسلامي . وقد أفتى فتهاء المرابطين سنة ٤٩٢ / ١٠٩٩ بهدم الكنائس المحدثه . وفي سنة ٥٢٠ / ١١٢٦ عرفت السلطات باتصال المستعربين مع نصارى الشمال فقتل عدد منهم . ونفي الباقون إلى المغرب . وتكرر ذلك سنة ٤٣١ حتى قل عددهم كثيراً في مدن الأندلس نتيجة الهجرة أيضاً إلى الأراضي النصرانية . ولعل هذه الأمور هي التي جعلت من السيد الكمبيطور (أو السيد) في مطالع العهد المرابطي أسطورة لدى المستعربين ولدى نصارى الشمال . وأعطته السمعة الواسعة بالبطولة والخلود في القصص . بل صار بطلاً قومياً حتى طلب له ملك اسبانيا بعد خمسمائة سنة أن يرسمه البابا قديساً . ومع أنه كان يتقلب في ولائه وكان هواه في الحرب لأي جهة كانت إلا أنه كان موضوع ملحمة شعرية تركت أثرها العميق في الفكر الاسباني وفي اللغة . كان الاسبان يرون فيه البطل المنتقم لعجزهم أمام الحكم العربي الاسلامي . وينسجون من حواه الاقاصيص تعويضاً عن الواقع .

وقد سقطت في رمضان سنة ٥١٢ / أواخر ١١١٨ سرقسطة في يد ألفونس الأول ملك أراغون وهي خط الدفاع الأساسي في الثغر الأعلى ويعمل الإسلام الأول في الشمال بعد أن كانت محل نزاع طويل بين الطرفين . وتبع ذلك الفونس بعد سبع سنوات بهجمة أوغلت نحو الجنوب تريد احتلال غرناطة. وهزم المرابطون هزيمة قاسية قرب مدينة الباسا اليهودية - في رأي الأديسي - . ومع أنه لم يوفق في غايته إلا إن فقهاء المرابطين بدلاً من أن يلقوا تبعة الهزيمة على أنفسهم وعلى إثارة الترف الأندلسي ألقوها على المستعربين واليهود . وفي حين فرضت فتوى قاضي اشبيلية على هؤلاء الآخرين التعويضات التي تسد العجز المالي في خزانة الدولة فرض على الأولين الجلاء وأنزلوا في سلا ومكناسة في المغرب .

وقد مست النعمة اليهود كذلك . فقد تمتعوا منذ الفتح بالحرية الدينية ، وبوضع اجتماعي مميز . وارتفع مقامهم حتى بلغ بعضهم الوزارة مثل مثل حسداي بن شبروط أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . فسهل نزوح المشرقين منهم إلى الأندلس . وصارت قرطبة في عهده مركز الدراسات التلمودية . ومع ذلك كله فقد أصبحوا موضع ريبة وآهام دائمين حتى إنها أغنياء يهود الأندلس وهم الذين كانوا يسكنون ويكثرون بلدة أليسانة اضطروا لدفع الجزية الكبيرة كي يسمح لهم بالحرية الدينية وبعضهم آثر الهجرة والهرب . بعد هزيمة المرابطين قرب بلدتهم سنة ٥١٩ .

لم تعمر دولة المرابطين طويلاً لأسباب عديدة على الرغم من سعتها البالغة :

(١) فسياسة التشدد الديني لم تقترن بسياسة ناجحة للدولة في النواحي الاقتصادية. ولم يتنبه المرابطون وهم حديثو عهد بالادارة والحكم ورغم دخول العناصر الاندلسية في خدمتهم ، إلى المفاتيح الأساسية لسياسة الدولة وتنمية مواردها . حسبوا أن التعصب الديني والقوة الحربية اللتين أقامتا الدولة كافيتان لبقائها .

(٢) ثم إن الامبراطورية التي شملت ما وراء الصحراء حتى الجزائر والأندلس كانت مفككة . وكان تنظيمها الداخلي أبعد ما يكون عن الاحكام والتماسك رغم سيطرتها على طرق التجارة المتحركة بين السودان وأوروبا الغربية

(٣) فقدت هذه الامبراطورية بسرعة دعائمتها الأساسيتين الجيش والسمعة الدينية : فالجيش لم يعد بسرعة جيشاً محارباً . وهنت القوى الحربية فيه وانقلبت إلى الترف في الأندلس، وأصابها بسبب صدمة الحضارة المفاجئة نوع من الجشع إلى حياة الدعة والراخي، مكنت القوى النصرانية في الشمال من تحقيق عدد من الانتصارات ضدها . ولعل أهمها سقوط سرقسطة : ثم إن سياسة التدين أصابها التراخي من جهة وضاق الناس بقيودها الشديدة من جهة أخرى فاضطرب أمر الدولة وأبغضت سياستها .

(٤) وأخيراً فقد عاث جند المرابطين في البلاد بضرارة لا تقل عن ضرارة مرتزقة الطوائف. وانقلبوا إلى النهب الزراعي وفرض الإتاوات الثقيلة وجمع المال. في الوقت الذي كانت فيه موارد الناس تقل بسبب انقطاع خطوط التجارة مع الجنوب السوداني والمغرب عقب ظهور جماعة الموحدين وانسيانها باتجاه الشمال منذ سنة ٥٢٠ / ١١٢٦ بقيادة المهدي ابن تومرت .

وهكذا عم الاستياء من الحكم في حين شلت تحت ضغط هذه الظروف حركة العمل والتجارة، وتولي الحكم سنة ١١٤٣/٥٣٧ تاشفين بن علي فانصرف بكليته إلى دفع الخطر الداهم عليه من التحرك الموحد في الجنوب .

وحركة الموحدين حركة سياسية دينية أشبه ما تكون بحركة المرابطين ولكنها أكثر جذرية منها . وقد نشأت كما نشأت الأولى في المناطق الجنوبية على الحدود بين المغرب والسودان وتشكل جيشها المحارب من العناصر البربرية المصمودية هناك . . وتحركت نحو الشمال كالمرابطين . وفي سنة ٥٢٤ كانت تحاصر مراكش عاصمتهم ثم تكتسحها تاركة لزعيمهم المرابطي أن يحارب وهو يراجع حتى شرقي الجزائر .

مؤسس الحركة محمد بن تومرت درس في المشرق. وتشيع من تعاليم الامام الأشعري في بغداد . ورجع إلى بلاده شديد الغيرة على تجديد الفكر الاسلامي مؤكداً في الدرجة الأولى جانب التوحيد في الدين — ومن هنا كسبت حركته اسمها — وداعياً إلى السنة وعقيدة السلف ورفض مفاهيم الفقه الرافضة التي تقول بالتجسيم ونسبة الصفات إلى الله ، والتي تقبل اجتهدات الفقهاء التشريعية. واتخذ لنفسه لقب المهدي ونزل يحارب الزائغين عن الدين في نظره معتبراً أنه وحده وجماعته هم الجماعة الموحدة الحقيقية والناجية والمؤمنة. وقد أرق بجماعته المحاربة التي كانت تتكاثر باستمرار بين البربر جند الدولة المرابطية ودفعها إلى التراجع عن المغرب ككل وحتى تلمسان في بضع عشرة سنة .

لم تؤثر الحروب الأولى بين المرابطين والموحدين على تبعية الاندلس

للأولين . فقد احتفظوا بها ولو أنهم كانوا ينهزمون أمام الجيوش النصرانية كما يعجزون عن حسن الإدارة ويضعفون . وقد كان في عزم ملك المرابطين حين حوَّصر في تلمسان سنة ٥٣٧ / ١١٤٣ سنة كاملة أن يلجأ إلى الأندلس واستدعى أسطوله من المرية ولكنه سقط من شاهرقيما كان يجتاز على جواده عقبة ضيقة مشرفة على البحر سنة ٥٣٩. في حين احتل الموحدون المدينة . كان ابن تومرت قد قضى منذ سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ وحل محله صديقه عبد المؤمن بن علي وهو من أصل متواضع لكنه كان في الواقع مؤسس دولة الموحدين الحقيقي . وهو الذي استولى على باقي المغرب الأقصى بين تلمسان وفاس وسبتة وطنجة وأغامت من المرابطين الذين أخذوا يديرون الملك خلف فتي يافع لم يتأخر عبد المؤمن حين حظى به عن ضرب عنقه رغم انتحابه أمامه لينهي بذلك عهد المرابطين .

وقعت الأندلس خلال ذلك في الفوضى السياسية ولم يختل فيها الأمن فقط وتعلو الشكوى، ولكنها عادت إلى عهد ملوك الطوائف . وظهرت فيها عدة دويلات صغيرة كانت أعجز من أن تقف للحركة النصرانية المتحفزة. ووجد عبد المؤمن أن عليه ، لتكامل التجارة والطرق والحكم في العدوتين أن يجتاز بحر الزقاق إلى الأندلس على الرغم من أنه لم يكن قد استوفى بعد التوسع لامتلاك الطرق التجارية ما بين الجزائر إلى أقصى شرقي ليبيا وهكذا أمر بمسيرة الجيش إلى الأندلس . وكان الانتصار على القوي المرابطية والمحلية فيها صعباً لأن قوى الجيش الموحد كانت موزعة بعد معارك كان بعضها دائماً . ولكن الفتح تم دون صعوبة في الأجزاء الغربية والوسطى . وسارع أمراء هذه المناطق دون كبير مقاومة إلى إعلان ولائهم وانضمامهم للموحدين . وكانت ولاية شريش البحرية

في الجنوب في طليعة هذه الولايات لعلاقاتها الاقتصادية الواشجة مع المغرب . ولذلك سعى أهلها بالسابقين الأولين . وصاروا مقدمين على غيرهم في التشريعات الملكية بالعاصمة مراكش .

وانضم إلى الموحدين بعد سنة من ذلك أي سنة ٥٤٠ أمير البحرا بن ميمون الذي كان قد استقل في قادس . ثم انضمت اشيلية . وسافروا من أعبانها للمبايعات . غير أن الاقسام الشرقية استعصت وعارض أمراؤها فكرة العودة للوحدة مع المغرب . واستقلوا باماراتهم . ومنهم مدينة المرية التي استقل بها أهلها من رجال الاسطول (القطائع) وغزاة البحر وكونوا فيها إمارة بحرية مستقلة وصاروا يغيرون منها على الشواطئ في اسبانيا وفرنسا من ايطاليا . حتى تكالبت عليها اساطيل برشلونه وجنوا وبيرة ومونبيلية بالإضافة إلى جيوش قشتالة وقطلونية ونافارا وجليقية واشتوريس فحاصرتها ثلاثة أشهر . ثم احتلتها عنوة سنة ٥٤٢ . وسلمتها إلى ألفونسو السابع الملقب بالسليطن . غير أن هذا الاحتلال الصليبي لم يدم سوى عشر سنوات ثم حررها الموحدون سنة ٥٥٢ . وتمرد بنو غانية عمال المرابطين في جزر البلبار وقاسى منهم الموحدون الكثير قبل أن ينتصروا عليهم . واستقل كذلك ابن مردنيش في بلنسية ومرسية . غير أن الامارة مالبت أن وجدت مصلاحتها في الانضمام للموحدين بعد موت صاحبها . وصار أولاده من كبار قادة الاسطول الموحيدي .

قضى عبد المؤمن خمس سنوات حتى استطاع تدويخ الأندلس كلها واستردادها إلى الامبراطورية . فلم يبق لبقايا المرابطين إلا جزر البلبار وكانت قوة تجارية وبحرية ربطت أسبابها بأفريقية (تونس) . وقد حاول بنو غانية الذين يحكمونها أن يستولوا

على الشواطئ الجزائرية التونسية ويقفوا للموحدين في مملكة بحرية تسيطر على التجارة. ولكنهم لم يلبثوا هم والجماعات النورماندية معهم سوى بضع سنين. ثم استطاع عبد المؤمن أن يسير جنده إلى شرقي الجزائر سنة ٥٤٧ ثم إلى تونس بعد سنتين ثم إلى ليبيا سنة ٥٥٥ / ١١٦٠ موحداً بذلك لأول مرة جميع المغرب العربي . بعد الفتوح الاسلامية الأولى ، تحت حكمه في امبراطورية لم تعرف هذه البلاد أكبر منها من قبل. وتمتد من حدود مصر إلى شواطئ المحيط الأطلسي وتضم إليها في الشمال الاندلس .

على أن الدولة النصرانية الناشئة في غرب الاندلس كانت قد اقتطعت جانباً منها . ففي سنة ٥٤٢ / ١١٤٧ . استطاع ملك البرتغال (البرتغال) أن يستغل مرور حملة صليبية ثانوية ببلاده ذاهبة إلى المشرق . فاستأجرها لمعونه على احتلال أشبونة (لشبونة) التي غدت فيما بعد نواة دولة البرتغال. ولم يستردها الموحدون بعد ذلك . لكنهم كانوا أكثر توفيقاً مع ملك قشتالة ألفونس السابع الذي توغل بجيشه في الاندلس حتى انتهى إلى قرطبة فصدوه هناك وأجبروه على التراجع . ونجح التحالف النصراني إلى حين في احتلال المرية .

ومن الملاحظ أن دولة المرابطين واكبت قيام الحروب الصليبية ضد المشرق الاسلامي حتى أواخر عهد زنكي والد نور الدين . وقد صارت السيطرة على البحر المتوسط في تلك الفترة لقوى الغرب الفرنجي والنورماندي . ولذلك عنى المرابطون والزيرون الذين عاصروهم في تونس ببناء الرباطات على السواحل الافريقية والمغربية دفاعاً عنها . وتحلوا تقريباً عن خطط الهجوم السابقة ونتيجة لذلك غدت كلمة مرابط

أشبهه بالوسام لمدعيها . لأنها جهاد في سبيل الله . أما الموحدون فقد عرفوا كيف يقيمون قوة بحرية تكفي للدفاع البحري ولمتابعة تسيير العلاقات التجارية بين المغرب والاندلس . وعلى الرغم من الطابع الديني الذي اتسمت به دولة الموحدين فإنها اكتفت بالدفاع عن مناطقها ضد الحركات الصليبية . ولم تشترك في الدفاع عن المشرق رغم استنجد صلاح الدين (١) بها ولكنها بذلت جهدها في الغرب للوقوف في وجه الصليبيات كما فعلت في حصار المرية سنة ٥٥٢ وفي حصار المهديّة ضد النورمنديين سنة ٥٥٥ ستة أشهر . وكانوا قد احتلوها سنة ٥٤٢/١١٤٨ . ومع ان جيش الموحدين البري كان عمادهم في التوسع إلا ان أسطولهم البحري كان عماد الربط بين العدوتين تجارة وحرباً ولذلك جعلوه أقوى أسطول في غربي المتوسط حتى لقد بنت دور الصناعة سنة ٥٥٧ / ١١٦٢ أربعمئة قطعة فيما بين وهران إلى الاندلس .

ولم يهمل الموحدون عمليات الدفاع عن الثغور المختلفة فأنشأوا المزيد من القلاع والرباطات ذات المناور وابراج المراقبة احتياطاً من غزوة صليبية مفاجئة بسبب طول شواطئهم على المتوسط والأطلسي . ومن ذلك رباط الفتح (مدينة الرباط) ثم مدينة الفتح المواجهة لجبل طارق . عدا مدن أخرى انشئت في عهدهم بعضها في الاندلس ومعظمها في الشمال الافريقي . وإذا كان هذا التزايد في المدن يدل على نمو الحرف وعلى التزايد السكاني ، فإنه يدل في الوقت نفسه على الغنى التجاري أيضاً واستقرار الأمن . والواقع أن سياسة الموحدين كانت تقوم على مبدأ احترام قوانين التجارة الدولية وضمنان السلام والطمأنينة في البحار حتى

(١) يقال إن الخليفة المنصور جهز ١٨٠ سفينة لمؤونة صلاح الدين ولكنها لم ترسل .

لو كان من يهددها من المسلمين . ويكفي أن نشير إلى الغارة التي شنّها أبو يعقوب يوسف على وكر القراصنة الذي كان يديره الناصر عبد الله بن عبيد الله في منطقة (الغارقة) في غربي الأندلس ، بعد أن ظلّ ما بين سنتي ٥٤٦ و آخر سنة ٥٦٣ ينهب أموال التجارة وسفنها نصرانية كانت أم مسلمة .

كان عبد المؤمن على عزم غزوة كبرى لدول الشمال النصراني يستعد لها في شواطئ المغرب سنوات حين دهمه الموت سنة ٥٥٨ / ١١٦٣ وقام على الحكم ابنه أبو يعقوب يوسف (٥٥٨ - ٥٨٠ / ١١٦٣ - ١١٨٤) وحارب الجيش الموحد في عهده دول الشمال كالقطلانيين . لكن معظم معاركة كانت مملكة البرتغال الناشئة في الغرب . فقد كانت أشد الممالك وطأة على المسلمين لأنها تقطع الشواطئ الجنوبية على الأطلسي بين الأندلس والمغرب . ولأنها المعبر الهام إلى قلب قشتاله . استغرقت هذه المعارك وقتاً طويلاً واضطرت أبا يعقوب إلى بناء التحصينات والقلاع ضد غارات البرتغال على طول الوادي الكبير . وبنى جسراً من السفن عظيماً على هذا الوادي لتعبره الجيوش المتحركة من إشبيلية إلى بطليوس المهددة . وتحصنت إشبيلية نفسها بسور حصين وأقيمت فيها دار للسفن . ولم تكن المعارك حاسمة ، ولكنها كانت سجالات بين الطرفين سواء في البر أم البحر . حتى إذا كانت سنة ٥٨٠ / ١١٨٤ وكان الملك الموحد بنفسه في معركة عند شنترين يحاصر قلعتها خرجت عليه حامية القلعة وجنده في اضطراب فأصابته بجراح مميتة !

كان لموت أبي يعقوب المفاجيء هزة اضطراب شملت كل امبراطوريته ، وقد استغلتها القوى المناوئة في الجوانب المهددة منها . ففي

حين وثب بنو غانية في جزيرة ميورقة (من الباليار) على أسطوله فأخذوه ثم هاجموا سواحل الجزائر وتونس وأخذوا بجاية وقابس ، انتهز البرتغاليون مرة أخرى مرور أسطول صليبي من خمسين سفينة بلشبونة سنة ٥٨٥ / ١١٨٩ عليها محاربون من الألمان والفلمنك (وكثيراً ما كانوا يمرون في هذه الفترة بسبب تحريض البابوية ورجالها للأوروبيين اثر فتح صلاح الدين للقدس سنة ٥٨٣ / ١١٨٧) فاستأجرهم سانشو الأول ملك البرتغال لاحتلال مدينة شلب التي اضطرت للاستسلام بعد أن قطعت عنها المياه .

استمرت هذه النكسة عدة سنوات استجمع خلالها أبنة أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ / ١١٨٤ - ١١٩٩) كل القوى واستنصرها . ولما لم تكن نكسة الدولة ناجمة عن ضعف في الموارد أو اضطراب في التنظيم الإداري وكانت أزمة طارئة عابرة فقد كان من السهل على العاهل الجديد أن يتجاوزها ويعيد الدولة مسيرتها الأولى . فقد أعاد الوحدة المغربية بانتصاوه على بتى غانية في المغرب واستطاع اجتذاب الحملة الغزية التي وصلت من مصر بقيادة قراقوش وأدخلها في خدمته . ثم انصرف إلى إتمام مشروع أبيه في جهاد الممالك الاسبانية المعادية وبخاصة منها دولة البرتغال الناشئة وأنها قشتالة . ووفق في ذلك توفيقه في المغرب .

كانت خطته أن ينفرد بممالك النصارى واحدة إثر أخرى فتحالف مع ملكي قشتالة وأراغون سنة ٥٨٧ / ١١٩١ ليحارب ملك البرتغال . ثم تحالف مع ملكي ليون وأراغون لينفرد بملك قشتالة . وهكذا استرد مدينة شلب من البرتغال وانتصر عليهم براً وبحراً فلم تقم لهم قائمة في عهده . ثم انتصر على قشتالة في قلب اسبانيا وهزم ملكها الفونسو الثامن

عند حصن الأرك سنة ٥٨٩ / ١١٩٣ هزيمة رنانة وأعتب ذلك بسلسلة من الانتصارات الأخرى في الشمال خرب فيها أرباض طليطلة واستولى على حصون مجريط (مدريد) ووادي الحجارة وعلى أراض لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام المنصور بن أبي عامر قبل مائة سنة . . . وصارت للمنصور صورة تضاهي صورة الناصر صلاح الدين في المشرق .

لكن لم يطل عهد المنصور سوى خمس عشرة سنة وقد توفي سنة ٥٩٥ / ١١٩٩ فكان لوفاته حزن عميق لأن الناس كانوا يأملون أن يعدل بقيادته ما خسروه في المشرق من معاودة الصليبيين نشاطهم في آخر عهد صلاح الدين ومن بعده ! ويتوسمون فيه الكثير في الأندلس .

جاء الناصر محمد بعد أبيه المنصور (٥٩٥ - ٦١١ / ١١٩٩ - ١٢١٤) فجعل همه الأول مرة أخرى وحدة المغرب لأن بني غانية عاودوا التمرد والسيطرة على الحوض الغربي للمتوسط . كانوا يكسبون بأسطولهم البحري الكثير . ويطمحون إلى السيطرة على مرافئ تونس والجزائر لتكون مصبات التجارة السودانية تحت نفوذهم . ونجح اسطول الناصر وقواه التي ترفدها المملكة الواسعة في احتلال جزر البليار . ثم انصرف كأبيه وجده من قبل إلى جهاد الممالك النصرانية في اسبانيا . كان ذلك قد أصبح عادة وهماً دائماً . أليس يمنح الشرعية ويرضي في الوقت نفسه الضمير الديني ؟

ومن الهام أن نلاحظ هنا أن حدود الدولة الأندلسية التي كانت تصل في عهد الخلافة أيام الناصر والمنصور حتى وادي نهر دويرة وتتصل مع حوض نهر إبرو تقلصت في عصر ملوك الطوائف حتى مجرى نهر آثة ؛ وفي عصر المرابطين والموحدين لم تتعد الحدود ، رغم جهودهم وحروبهم

وانتصاراتهم - ومعظمها كان دفاعياً - حوض نهر الوادي الكبير أي الخط الدفاعي الثالث والأخير عن الأندلس (١) إلا في الناحية الشرقية المطلة على البحر المتوسط وعلى الصلات القوية مع المغرب وتونس والاساطيل الإسلامية . فهذه المنطقة ظلت كاملة في أيدي المسلمين فيما عدا سقوط سرقسطة منها سنة ٥١٢ / ١١١٨ ، أيام انهيار معظم الساحل الشامي أمام الصليبيين . فخلاصة العمل المرابطي - الموحيدي في الأندلس كان عملية دفاع عن بقاياها عامة والحفاظ على ما انتهى إليه كيائها آخر عهد ملوك الطوائف .

كانت أقصى حملات الناصر تلك التي كانت سنة ٦٠٧ / ١٢١٠ ضد ملك أراغون . أوقع المحاربون بجيشه البري واسطوله البحري أوحش فجيعة . غير أن الظروف العامة لاسبانيا وأوروبا كانت قد تغيرت بتدخل البابوية التي حز في نفسها فشل الحملة الصليبية الرابعة على المشرق وانهاؤها في القسطنطينية ولمصلحة البندقية بدل انتهائها في القدس أو مصر ولمصلحة الصليبيين المحتلين .

سرت دعوة البابا ابنوست الثالث في أوروبا . فجاءت اسبانيا جيوش جرارة من متطوعي ألمانيا وإيطاليا وفرنسا . وقام تحالف صليبي يضم جيشي الأراغون ونافار بملكيهما . وقوى البرتغال مع فرقة من الداوية ، صليبي المشرق . وعلى رأس الجميع ملك قشتالة ومعه بعض الصليبيين الفرنجة . كانت الجبهة المعادية واسعة اضطر معها الناصر أن يجمع لها معظم جنده في الأندلس يدفع بهم إلى المعركة التي يسميها

(١) كان خطا الدفاع الأول والثاني في الثغرين الأعلى (سرقسطة) والأدنى (طليطلة) قد سقطا من قبل في سنتي ٥١٢ و ٤٨٧ هـ .

العرب واقعة العقاب ويسميتها الاسبان لاس نافاس دي تولوسا سنة ٦٠٩ / ١٢١٢ وكانت كارثة حاسمة لم تفقد الخليفة الموحي جيشه كله الذي كان - فيما يبالغون - ستمائة ألف لم ينج منهم سوى ألف واحد ، ولكنها أفقدت الامبراطورية الموحدية ، ومن وراء ذلك المسلمين معظم الأندلس وإلى الأبد . ذلك أن الخط الدفاعي الثالث في الجنوب وهو الوادي الكبير انهار بما عليه من عواصم كبرى مثل قرطبة واشبيلية . وانسحب المسلمون إلى جبال شلير الشاجية (سيرا نفادا) في الجنوب الشرقي يتحصنون بها .

هكذا ، في حين تقلص النفوذ الموحي جداً بفقد الناصر معظم قواه في الأندلس، وانكفائه إلى المغرب. تناهب المتحالفون النصاري مع بعض صغار الامراء المسلمين ذلك الإرث كله . وحين توفي الناصر بعد ذلك (رجب سنة ٦١١ / أواخر سنة ١٢١٣) كان قد تنازل عن الملك جميعاً لابنه المستنصر الذي حكم عشر سنوات ضعيفة وتوالى من بعده ثمانية خلفاء من ذرية عبد المؤمن انتهوا بتسليم الحكم بعد خمسين سنة (١٢٦٩/٧٧١) إلى موجة بربرية بدوية ثالثة من قبائل زنانة اقتصر نفوذها مع السودان على المغرب وجواره بترعمها بنو مرين .

خلال الفترة التي امتدت ما بين دخول القوى المغربية إلى الأندلس (٤٧٩ / ١٠٨٦) وخروجهم منها (٦١٠ / ١٢١٣) تابعت الأندلس دورها الحضاري كاملاً سواء بالنسبة للمغرب أو بالنسبة لأوروبا فقد كانت البؤرة الحضارية المضيئة بين الطرفين .

ولم تختلف عوامل التكون السكاني ولا عوامل الآلية الاقتصادية الاجتماعية ولا الثقافية التي تحرك المجتمع الأندلسي في هذه الفترة

المرابطة — الموحدية ، سواء في أسسها التكوينية أو في وثيرتها أو علاقاتها عما كانت عليه في الفترات السابقة إلا أن يكون ذلك في الاندماج السكاني المتزايد نتيجة التعايش أو في التوسع والاتقان نتيجة التطور الطبيعي وتراكم الخبرة وزيادة الترف . أو في دخول عناصر جديدة على الحياة العامة . فقد دخلت الأندلس مثلاً صناعة الورق ، وكان قبل ذلك يستورد . وتوسعت زراعة النخيل والبرتقال والكتان والقطن وازدادت صناعة النسيج اتقاناً كما أتقنت صناعة المعادن المختلفة وامتازت خاصة عدة الحرب من سيوف ورماح ودرق وصناعة النسيج الفاخر ومصنوعات البذخ والحزف والطرب من حلي وعطور وآلات وآنية مع توسع الترف والتحضر وتوفر الإمكان المادي . وزخرفت هذه الاعمال بمختلف الزخارف دون أن نذكر الروائع من أعمال البذخ. كل ذلك سمح للأندلس بأن تستمر في دورها الحضاري الرائد بين الجناحين الأوروبي والمغربي باعتبارهما أقل حضارة، وبالمستوى نفسه إن لم يكن بمستوى أعلى من التحضر والترف .

كان تأثير الأندلس في أوروبا بطيئاً طويلاً المدى . أما في المغرب وبخاصة في عهد المرابطين والموحدين فيمكن أن نقول إن الأندلس — دون أن تفقد شيئاً من تألقها — انتقلت بحضارتها إلى المغرب . كانت تأثيراتها العمرانية والثقافية والفنية تتوالى. وتظهر على الضفة المغربية بوضوح لأنها المنطقة الأضعف حضارياً . وقد اتجهت إليها رحلات العلماء والشعراء والفنانين والبنائين والمهندسين والطامحين إلى الوظائف والإحاطة بالبلاط بالإضافة إلى التجار والحرفيين . وإذا كان المرابطون والموحدون قد منحوا الأندلس القوة المادية العسكرية فقد منحتهم بالمقابل القوة الحضارية والمدنية التي كانوا يفتقدون . ظهر ذلك واضحاً

في عدد المدن التي انشئت في المغرب في تلك الفترة والتي تزيد على العشرين ومنها الرباط والفتح ومراكش وغيرها .

ومن الملاحظ أن الاتجاه إلى المغرب عامة رافقه حركة نزوح أيضاً إلى تونس والمشرق فقد كانت النزاعات السياسية والأزمات الاقتصادية التي كثيراً ماتصيب الأندلس تدفع الكثيرين إلى النزوح . ففي تونس والاسكندرية ومكة والقدس ودمشق بل وفي بغداد وماوراءها أيضاً قامت جاليات مغربية واندلسية منذ القرن الخامس كانت دوماً موضع احتفاء . وكان يطلب إلى العلماء من هؤلاء الحديث عن أخبار المغرب وعلمائه بل يطلب إليهم التأليف في ذلك . وثم كتب عديدة ظهرت في المشرق لعلماء المغاربة والاندلس تتحدث عن رجال القلم والسياسة لديهم . ومن هؤلاء أبو بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك وابن سعيد صاحب كتاب المغرب في أخبار المغرب .

ونشطت في الوقت ذاته كتب الرحلات التي تدل دلالة واضحة على مدى تشوق المغاربة إلى معرفة كل شيء عن المشرق . ولم تكن تصف مناسك الحج فقط — وإن كانت تركز عليها — ولكنها تصف كل شيء يراه الرحالة في كل بلد . وأمثلة ابن جبير الحميري وأبي حامد الغرناطي وبنيامين التطيلي (اليهودي) كافية للدلالة على ذلك . وإذا كان بعضهم يعود إلى بلاده فبعضهم استقر ومات في المشرق . كالمؤرخ ابن سعيد والنباتي ابن البيطار ومحي الدين بن عربي الصوفي المعروف وأبي بكر الطرطوشي . وقد زادت نسبة المستقرين حين بدا في الأفق الحربي أن الأندلس في خطر . ثم ازدادت وتيرة النزوح حتى بلغت أوجها بعد انهيار الحكم الموحد في الأندلس .

وكان الفرق واضحاً بين الرحلات المبكرة التي كان الغرض منها الحج أو طلب العلم وبين الرحلات المتأخرة التي كان الغرض منها الاطلاع أو الهرب أو الاستقرار الآمن . وكانت الحركة بعامة في القرون الأربعة الأولى تميل إلى العودة للاندلس في حين كانت في الفترات المتأخرة تميل إلى الهجرة منها . كما كان الغرض العام من الرحلات الأولى الاستفادة من علم المشرق في حين كان الغرض من الرحلات المتأخرة بالعكس إفادة أهل المشرق كرحلة ابن زهر والباهلي وابن العربي وغيرهم . وقد رافق اليهود هذه الرحلات المتجهة إلى الشرق حين سمعوا بتألقه ورواج تجارته وتقبل العلماء فيه . ومن أبرز هؤلاء ابن ميمون وتجار الكارم الذين كانوا من أبرز التجار بين الهند وأوروبا .

هذه الحركة السكانية كانت في الواقع توحد الحركية الاقتصادية وتتأثر في الوقت نفسه بها . كما كانت تنسج الحلفية الموحدة للثقافة العربية الإسلامية وتوحيدها دون انقطاع ، لا بين الاندلس والمغرب فقط ، ولكن بين المشرق والمغرب أيضاً . وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية بدأت بنزع أيدي المسلمين عن البحر المتوسط ، إلا أن حركة التجارة والرحلة الإسلامية حتى على السفن الأوروبية لم تنقطع . بالإضافة إلى أن حركة القوافل على طول الساحل المغربي حتى مصر كانت دوماً مستمرة ونقل البضائع بين الطرفين قائماً على الدوام . لأنها رغم المصاعب البرية كانت أكثر أمناً من ركوب البحر « الفرنجي » وفي تلك الأوقات .

وإذا كانت بضائع التجارة لم تختلف كثيراً في الترة المرابطة — الموجدية عما يقبل إلا في التوسع وبخاصة مع السودان ، فإن الأعمال الحرفية القائمة على الفنون الفرعية والعملية والأعمال العمرانية

هي التي أخذت تنتهى تطورها في هذه الفترة بتراكم الخبرات وتنافسها وتوفر الموارد المالية لمساندتها والاتفاق عليها . وفي المتاحف نماذج رائعة الجمال للأعمال الفنية المعدنية من صناديق وسيوف وأسرجة وللخزف والورق والنسيج والعاج والزجاج وغيره تكشف مدى النشاط الاقتصادي الاجتماعي في تلك الفترة .

وقد عرفت طليطلة واشبيلية بصنع الآلات المعدنية كالسيوف والدروع والمزاليج والاسطرلابات والخنجر، وتعتبر سيوف طليطلة أجود السيوف بعد التي تنتجها دمشق . وكانت الاندلس تصنع الاسطرلابات التي ابتكرها المسلمون لتعيين مدى ميل الشمس على الافق ومواقع النجوم .

وعرفت قرطبة وغيرها بصناعة الأواني من النحاس والفضة والبرونز والذهب كالطسوت وصفائح الأبواب والثريات والأقداح والتمائيل والمجامر والقنطور المزخرفة بزخارف نباتية وحيوانية ، والأسرجة والثريات والتحف الفضية وزجاجات العطور ومختلف الحلي ذات الصياغة الدقيقة. ولم يعن الاندلسيون بزخرفة المعادن . وانصرفت عنايتهم — كما في المشرق — إلى أطلية الخزف. وكانت بلنسية هي مركز هذه الصناعة التي قلدت في عدد من بلاد أوروبا بعد ذلك . ومن إنتاجها الآجر والخزف الملون ذو البريق المعدني وكان يضاهي الصيني والشرقي في الجودة والأناقة الفنية . ولحقت بها منذ أواسط القرن الخامس / ١١ م قرطبة وطليطلة ثم مالقة وقلعة أيوب وبلنسية . وكانت هذه البضاعة تجد طريقها إلى المشرق وإلى أوروبا على السواء . وبرزت الاندلس بصناعة النسيج النفيس من الحرير أو الكتان وكانت أنوال قرطبة مشهورة بها .

كما كان في المرية أربعة آلاف وثمانمائة نول. وكان انتاجها أيضا هي الدبقي المشرقي وصناعة دمياط وتنيس. وبلغ من شهرة هذه الأنسجة أن النماذج النسيجية المبكرة في أوروبا كانت تقلدها حتى في الكتابة العربية عليها .

واشتهرت الأندلس بحفر الخشب والعاج. ومنها نماذج غديدة ماتزال محفوظة كالعلب والصناديق وحشوات الأبواب والمناير وعليها رسوم من أوراق النخيل أو الغزلان أو بعض الطيور والطواويس . وعرفت الأندلس صناعة الورق منذ أواسط القرن السادس / ١٢ م . جاءت الأندلس من المشرق عن طريق المغرب وسرعان ما انتشرت لتواكب حركة التأليف وتكفي الحاجة المتزايدة إلى نسخ الكتب . وقد سمحت هذه الصناعة التي اتسعت بسرعة باقامة المكتبات الضخمة في القصور ولدى الناس وبسطير التأليف الموسعة ونشرها . ومن الأندلس انتقلت صناعة الورق إلى فرنسا ثم الغرب الأوروبي كله .

هذه المصنوعات الأندلسية لم تكن فقط للاستخدام المحلي . وكان الكثير منها يصدر ويصبح من مواد التجارة وموارد البلاد . وقد بلغ تكاملها أوجه القرن السادس / ١٢ م الذي يمكن أن يعتبر قرن النضج الأخير للحرف الأندلسية والتوسع الأخير للحركة التجارية. وقد بلغت موارد الدولة من هذه وتلك المبلغ الذي مول الحروب المتصلة التي قام بها المرابطون والموحدون ضد الممالك النصرانية والتي بلغت في النهاية حد تجنيد ٦٠٠ ألف جندي في المعركة الفاصلة الأخيرة معركة العقاب. ومهما يكن في هذا الرقم من المبالغة فانه يبقى رقماً يعجز الموارد إن كانت ضيقة مخلودة .

ولا تتجلى "وفرة الموارد المربطية - الموحدة في تمويل العمليات الحربية فقط ولكنها تتجلى أيضاً في العمليات العمرانية التي تمت في ذلك العهد . وقد برزت فيها بجانب المدن العديدة التي أنشئت والمراصد والمحارس والقلاع أعداد من النماذج العمرانية الرفيعة تدل على مدى ماوصلته هندسة البناء من تكامل ودقة وزينة . وعلى الرغم من أن جميع معالم الفنون الدينية قد اندثرت في الاندلس نتيجة أعمال التعصب ومحاكم التفتيش التي أعقبت انهيار الدولة العربية الإسلامية نهائياً هناك . فلم يبق إلا بعض المساجد الضخمة ، فان الكثير من المباني المدنية كالقصور والقلاع كان حظها أوفر في البقاء . ويلاحظ على هذه الاعمال العمرانية ، الاندلسية ، من خلال ما بقي منها قائماً في المغرب وفي الأندلس :

١ - أن عددها على الجانب المغربي كان أكثر . كما كانت وخرقتها أوفر . وذلك طبعي مع انتقال مركز الحكم وثروته وموارده إلى المغرب ، ومع القلة التي كانت تتسم بها المباني فيه من قبل ، سواء في المدين أم في الجوامع الكبرى أم القصور والقلاع والأسوار . ويلاحظ أن هذه القلة في المباني الدينية والعمليات العمرانية والتحصينات ، بخاصة إنما كانت ناجمة من قبل عن قلة السكان النسبية ، وتخلفهم الحضاري ، وعدم وجود تهديدات نصرانية لهم عبر البحر من الشمال ، لقيام الاندلس القوية حاجزاً بينهم وبين الممالك هناك ، ولضعف الممالك وبخاصة في الاساطيل البحرية من تجارية وحربية . فلما ضعف الحاجز الاندلسي وتزايد السكان وقوي بالمقابل العدو الشمالي وقام التماس المباشر معه اضطر المربطون ثم الموحدون لحراسة شواطئهم بالأربطة وبالقلاع والمراصد ، ولحماية مدنها بالأسوار ، وتطوير تجارتهم بالمرافئ

الآمنة . بالإضافة إلى إظهار حضارتهم وغناهم ببناء القصور الفخمة والجوامع والمدارس وما إليها والاستزادة منها .

٢ - استخدام الأقواس المزدوجة والأقواس المفضضة ذات الشكل النعلي . وإذا كانت الأولى ناجمة عن استخدام مواد البناء من الابنية القديمة والأعمدة الرفيعة القصيرة ، فإن الثانية بدورها وظيفتها أن تزيد في ارتفاع السقف ليتناسب مع الضخامة والسعة . وقد برع المهندسون المعماريون في الاندلس في استخدام هذه الآلات فليس من بناء إلا وفيه نماذج منها وعليها ألوان الزخرف . المتناسب مع تيجان الأعمدة . وكان جامع قرطبة يقوم سقفه على غابة من الأعمدة كثيفة تبلغ عدتها ١٢٩٠ عموداً .

٣ - تزيين سطوح الجدران . فكما اتجهت صناعة الحرف والمعادن والعاجيات إلى الطلاء الخارجي كذلك اتجهت إلى أعمال البناء إلى تزيين ظاهر الجدران فكان تزيينها بزخرفة ظاهر سطوحها بمختلف الزخارف من هندسية متداخلة وكتابية ومقرنصات وتزيينات نباتية وصور حيوانية . موشحات أحياناً من الحياة العامة كمناظر الصيد وحفلات الغناء . فكأنها وبمشاهد من البناء كما كان ثم موشحات في الشعر والغناء .

٤ - استخدام التذهيب لوناً من الألوان . ولعل المباني الأندلسية أكثر منه للدرجة التي جعلت بعض مفكري الغرب (مثل اشبنغلر) يعتبر التذهيب لون الحضارة العربية . ولعله استخدم كثيراً نتيجة البذخ أو للدلالة عليه . كما استخدمت في الزخارف الكثيرة المترفة ألوان من الرخام والجص في سخاء بالغ وإسراف عجيب مع الألوان البنفسجية والأرجوانية والبرتقالية .

٥ — استخدام الحدائق في داخل الأبنية ومن حولها فهي جنة أزهار حتى في الجوامع كجامع قرطبة الذي زرعت باحته الخارجية بالأشجار. وأباح لها المذهب المالكي ذلك . وللزهور والرياحين وما إليها دورها العميق في الحياة الأندلسية العامة . يتبين ذلك في الشعر كله وفي اختصاص بعض الشعراء (كابن خفاجة) شاعر الطبيعة في ترصيع شعره بالنباتات والزهور بل يتبين أيضاً في أسماء الكتب التي لا يكاد لا يخلو معظمها في تسمية من أسماء الزهور .

ومن أبرز الآثار الأندلسية في عهد المرابطين والموحدين القصر (الكازار) في اشبيلية الذي بناه لعامل الموحدين مهندس عربي من طليطلة سنة ١١٩٩/٥٩٦ — ١٢٠٠ ولم يكن بين قصور الأندلس الشهيرة في قرطبة و طليطلة ما يضارعه شهرة سوى الزهراء والزاهرة. ولكنهما اندثرا بالفتن فلم يبق قائماً سواه . وثم أيضاً جامع اشبيلية الذي بني ما بين سنتي ٥٦٨ — ٥٩١ والذي نراه اليوم ماثلاً بينائه في كنيسة سان ماركو وبجانبه مئذنته الشهيرة (لآخر الدا) التي بنيت سنة ٥٨٠ وازدانت بقناطر مستننة قبل أن ينشأ الزي القوطي المسنن . وهي اليوم برج للناقوس .

هذه الملاحظات التي سلفت تنطبق على فن العمارة الأندلسية عموماً. ولنذكر معها أن العمارة في عهد الموحدين خاصة كانت أكثر بساطة وأوسع قياساً . فان التزمت الديني عند هؤلاء انعكس أثره في التقشف المعماري والخطوط المستقيمة والجلدران العارية . ولكنهم كانوا يعوضون عن ذلك باستخدام المساحات الواسعة والأبنية الشديدة الضخامة تعبيراً عن الوفرة المادية وجاه الملك .

وقد تماشى الخط الفكري للانندلس خلال القرن السادس / ١٢ م مع الخط السياسي والاقتصادي والعمراني . وما كان له أن يتأخر وهي متقدمة ناشطة . وكان لرعاية عدد من المرابطين والموحدين للشعراء والعلماء أثرها . ولكن الفضل الأساسي يرجع إلى نشاط جوانب الحياة بعضها عن بعض وإلى القاعدة الشعبية المشبعة بالعناصر الثقافية من عهد الإمارة حتى آخر عهد الطوائف . ولم يكن المرابطون الأوائل ولا الموحدون الأوائل بالذين يفهمون العربية أصلاً أو بالذين يحفلون مثلاً بالشعر العربي أو الثقافة الفلسفية أو الجدل الديني . ولذلك انصرف الشعراء عن البلاط السلطاني في مراكش إلى جماهير الشعب في الغالب وإلى زملائهم في الفكر . فكان الشعر والفلسفة والطب والدراسات الدينية والتاريخية وكأنها أضحت تصنع وتبدع لذاتها ولمجرد الفن والتأليف والجدل والمعرفة . انفصلت الحياة الثقافية بوضوح عن حياة البلاط الذي أصبح بعيداً في مراكش ، بلى يقصده بعضهم . ولكن الجماهرة تكتفي برواج بضاعتها في أرضها ذاتها وبين جمهورها المثقف . وهذا لا يعني أن جميع زعماء المرابطين والموحدين كانوا يعزفون عن الثقافة ورعاية أهلها فقد كان بعضهم ذا حظ وافر من العلوم العقلية كأبي يعقوب يوسف (٥٥٨ / ٥٨٠) الذي كان يعرف الفلسفة والفلاسفة . وقد ضم بلاطه عدداً منهم ومن كبار العلماء كابن طفيل الاندلسي صاحب كتاب : حي بن يقظان . ولكن بعضهم الآخر كان ، بحكم التقاليد والاستمرار وبحكم التقليد أيضاً يوالي العلماء وشيوخ الدراسات الدينية والشعراء بانعامه ويبسط لهم جناحه . ولكن رعاية هؤلاء واهتمامهم وأذواقهم إنما كانت منصرفة إلى الأعمال العمرانية البنائية أكثر .

وقد غصت الفترة المرابطية الموحدية ، بأعداد كبيرة خصبة من مشاهير الشعراء والفنانين والعلماء والفلاسفة والرحالة الجغرافيين والمؤرخين والأطباء والعشائين . وكثرتهم لم ترتبط بالبلاط . ومن هؤلاء :
في الفقه والحديث أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد قاضي الجماعة في قرطبة. وجد الفيلسوف ابن رشد ، وابن المقرئ علي الفزاري الغرناطي وابن الخراط عبد الحق بن عبد الرحمن الاشبيلي وابن فتحون الأوريولي ، والقاضي المشهور عياض بن موسى اليحصبي ، وأبو محمد عبدالله ابن علي الرشاطي ، وابن قرقول ابراهيم بن يوسف ، والسهيلي أبو زيد عبد الرحمن بن عبدالله، والاقليشي الزاهد أحمد بن معد ، وابن القرطبي المالقي عبدالله بن الحسن، وابن حوط الله البلنسي عبدالله بن سليمان ، وأبو الربيع البلنسي الكلاعي، وابن القطان علي بن محمد ، وابن خلقون الأونجي ، وابن سيد الناس أبو الفتح محمد بن أبي بكر وغيرهم .. وما ذكرنا إلا القمم والبارزين .

ونبع من الشعراء في هذا العصر نفسه ابن خفاجة. الشقري الذي برع في وصف الرياض وابن أخته المعروف بابن الزقاق ويعتبر ان الذروة العليا للشعر القديم المجدد في الأندلس، وثم ابن بقي القرطبي صاحب الغزل الرقيق، وأبو جعفر أحمد العنسي من شعراء البلاط ، وحفصة الركونية الشاعرة الغرناطية، وأبو بكر محمد بن زهر من أسرة الأطباء المشهورة وكان من مبرزي الشعراء، ويحيى بن مجبر بحثري الاندلس وأبو البقاء الرندي صاحب القصيدة في رثاء الاندلس وابن الأبار أبو عبدالله محمد القضاعي الشاعر المؤرخ ، والأعشى التطيلي الذي عاش في أشبيلية وهو الشاعر الزجال . وقد هاجر قسم من الشعراء هذا

العصر إلى المشرق حاملين معهم علومهم وثقافتهم ونظموا هناك الشعر وألفوا الكتب كأبي الوليد الطرطوشي وأبي الصلت أمية الداني . واهتم الكثيرون بجمع المختارات من النظم الرفيع والنثر لكثرته كما نرى في (الذخيرة) لابن بسام وقلائد العقيان لابن خاقان .

وقد قامت المنافسة العنيفة بين الاندلسيين والمغاربة . لأن غياب التسامح في المجتمع الاندلسي أدى إلى ميل المستعربين - وهم أكثرية واضحة - بعواطفهم إلى الممالك النصرانية لاسيما وهم يرون غزواتها وانتصاراتها. وهذا مازاد في اعتماد الاندلسيين على المغرب مما دعا المغاربة إلى أن ينظروا إلى أهل الاندلس نظرة الاستعلاء والفخر والاستضعاف . وانبرى هؤلاء يتصفون لأنفسهم بابرار رجالهم ومواهبهم ورسالة إبي الوليد الشقندي مظهر من مظاهر هذه المنافسة التي كانت ، أدبية فكرية ولكنها ذات جذر سياسي. وهذه التزعة ذاتها دعت إلى ظهور تلك المؤلفات العديدة في التراجم وفي تاريخ الأدب وفي فهارس الكتب وفي تواريخ النواحي . كانت نوعاً من الدفاع عن الذات الاندلسية في الوقت الذي كانت فيه تسجل مآثرها وابداعاتها. ومن كبار كتاب التراجم والمؤلفين فيها ابن بشكوال أبو القاسم خلف القاضي باشبيلية وله خمسون مؤلفاً في أغراض متعددة . وابن الأبار الشاعر نفسه . وابن سيداله التحيبي ، وأبو جعفر أحمد الضبي ، والقاضي عياض اليحصبي أبو الفضل ، وأبو الخطاب ابن دحية الكلبي قاضي دانية وغيرها ، والمحدث أبو محمد قاسم البرزالي الذي أنهى حياته في دمشق . كما ألف في تاريخ الأدب أبو الحسن علي بن بسام الششتري صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة وأبو نصر الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان ومحاسن الأعيان ، وكتاب مطمح الأنفس ومسرح

التأنس . ومن المؤلفين في تاريخ النواحي والبلدانيات : محمد بن علقمة الصدفى في تاريخ بلنسية، وأبو المطرق المخزومي في فضائل ميورقة وتاريخها ، والفقيه المحدث أبو عبدالله محمد المالقي في تاريخ مالقة .

في جميع هذه النواحي كان هناك كثيرون آخرون. كما ظهر من المؤرخين البارزين : ابن صاحب الصلاة عبد الملك الباجي ، واليسع بن عيسى الغافقي صاحب المغرب في محاسن المغرب ، وبنو سعيد الذين كتبوا على ثلاثة أجيال كتابي المغرب في أخبار المغرب والمشرق في حلي المشرق وأبرزهم هو آخرهم علي بن سعيد المغربي . وهناك عبد الواحد المراكشي الذي كتب المعجب في تلخيص أخبار المغرب وابن عذارى أبو العباس أحمد الذي كتب البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب .

وفي هذا العصر مع كثرة الحركة بين العدوتين والرحلة أو التزوح إلى المشرق كثرت الحاجة إلى كتب الرحلات وتعيين المسالك الجغرافية وبرز في هذه الناحية الشريف الأدرسي أبو عبدالله محمد بن محمد المشهور والذي كتب لروجار النورمندي صاحب صقلية كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ووضع معه خارطة ثالث للعالم . وثم الرحالة ابن جبير أبو الحسن محمد الكنفاني الذي رحل إلى المشرق ثلاث مرات في عهد صلاح الدين وأدركته المنية في الاسكندرية . وقد كتب الكتاب المعروف برحلة ابن جبير .

وظهرت براعة الدندلسيين في النحو ومعاجم اللغة لدى العديدين . ومنهم عيسى بن سليمان الرندي النحوي، وأبو الحسن بن عصفور الاشبيلي من أعلام النحاة في عصره، وأبو علي عمر الشلويني الاشبيلي . وأوسع النحاة شهرة في هذا العصر هو ابن مالك جمال الدين محمد صاحب

الأنفية المشهورة، هذا بالإضافة إلى السيد البطليوسي أبي محمد والسهيلي أبو القاسم صاحب الروض الأنف — أما في أصحاب المعاجم فلن نجد أبرح وأشهر من ابن سيدة أبو الحسن علي الضرير صاحب كتاب المخصص والمحكم والمحيط الأعظم .

أما إذا انتقلنا إلى جانب الفلسفة وما إليها، وجدنا أنه على الرغم من التزمت الديني لدى الفقهاء المرابطين والموحدين فإن أبرز فلاسفة الاندلس قد ظهوروا في هذا العصر. وإذا لم يظهر الكثيرون ممن يمثلون الافلاطونية الحديثة كابن مسرة القديم، فقد ظهر الأعلام من مدرسة المشائين والمدرسة الأرسطية. ويكفي ان نذكر ابن طفيل أبا بكر محمد عبدالله القيسي صاحب رسالة : حي بن يقظان التي ذاعت الذبوع الواسع في الشرق والغرب : وأن نذكر عميد فلاسفة الاندلس الذي يوازي ابن سينا المشرقي وهو أبو الوليد محمد ابن رشد (توفي سنة ١١٩٨/٥٩٥) الذي انصرف إلى إظهار التوافق بين العقل والدين . إنه يعرف في أوروبا باسم آفروس وكانت فلسفته جسر الاتصال بين فلسفة الاغريق وأوروبا عدة قرون . وعلى الرغم من أنه أضطهد في العهد الموحدي لأسباب سياسية لكن المدرسة الرشدية كانت القمة الأخيرة فيما وصلت إليه الفلسفة الاسلامية . وله عدا ذلك مؤلفات في الفقه والفلك والطب والعقائد . ومن أشهر مؤلفاته « تهافت التهافت » يرد به على أبي حامد الغزالي .

ثم كان من أقطاب المتصوفين في المغرب والشرق الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الأندلسي الذي استوطن دمشق وتوفي فيها سنة ٦٣٨ وهو صاحب الفتوحات المكية وكان أعظم مؤلفاته . بلغ به الغاية في

الفلسفة اللاهوتية . ويأتي بعده ابن سبئين (أبو محمد عبد الحق المرسى)
الذي طار صيته كل مطار مع مدرسته الفلسفية .

وأما في الرياضيات والملك والعلوم الأخرى كالطب فانا نجد
في هذا العصر كوكبة من العلماء وإن لم يكن معظمهم من المبدعين
ولكن من الضليعين فيها . ففي القرن السادس / ١٢ م عاش ابن مسعود
الاشبيلي الفلكي، والرياضي ابن سهل الضرير الغرناطي، وظهر جابر بن
أفلح الاشبيلي الذي اشتهر أمره في الجبر. ومن علماء الاندلس في الفترة
نفسها أبو اسحق البطروجي الذي ابتدع نظرية جديدة في حركات
النجوم ، ناقضاً نظرية بطليموس كلها . وإذا لم يظهر من علماء النبات
أو الكيمياء من يذكر فقد ظهر الأطباء المعروفين ممن أوصلوا الطب في
الاندلس إلى أوجه في القرن السادس / ١٢ م كأمية الداني. وابن باجة
وابن رشد لكن زعامة هذا العلم ذهب بها بنو زهر أبو مروان عبد الملك
وابنه أبو العلاء وأعظمهم هو عبد الملك الحفيد ابن أبي العلاء طيب
ابي يعقوب الموحدي وصاحب كتاب التيسير أفضل ما ألف العرب في
الطب العملي . وهناك أبو جعفر أحمد الغافقي صاحب كتاب الأدوية
المفردة . ، وأبو عمران موسى بن ميمون اليهودي طيب صلاح الدين .
ومن أهم كتب الفلاحة ذلك الذي كتبه ابن العوام ابو زكريا يحيى بن محمد .
أما ابن البيطار طيب. أبي يعقوب أيضاً ضياء الدين أبو محمد بن أحمد
فيعتبر أعظم علماء النبات في عصره . وذاع صيته كثيراً في المشرق وأصله
من مالقة ولكنه تجول كثيراً في المغرب والمشرق ووصف بدقة مختلف
النباتات والأعشاب في كتابه الموسوعي (وتوفي في دمشق ٦٤٦ /
١٢٤٨) وقد عاصره في الاندلس والمغرب عشاب آخر هو محمد بن
السراج الغرناطي

هذه الجمهرة التي تمثل فكر الاندلس في فترة النضج والعطاء تميزت بأن الكثير من رجالها هاجروا إلى المغرب وإلى المشرق وردوا إليه دينه السابق على بلادهم وعلمائهم . وكتبوا المؤلفات الشاملة والموسوعية في مختلف العلوم والمعارف كما كان إنتاجهم في كثير من الأحيان ، في هذا العصر الصليبي ، أهم من إنتاج المشرق . هنا وبهؤلاء ينتهي تاريخ الاندلس تقريباً ليبدأ بعدهم الفصل الأخير .

• • •

غزاة...فصل الأخير

حين انسحب الخليفة الناصر من الاندلس لم يكن قد بقي له فيها سوى حاميات محدودة في بعض المدن وقد افترست المعركة الخاسرة كالوباء معظم جنده . وكان ذلك يعني انهيار الاندلس لأن قوتها المساندة دمرت تماماً . ومع ذلك فقد حاول الاندلسيون تفادي الكارثة المقبلة بأنفسهم بعد أن سبق السيف العدل . سرت فيهم شائعة تنبؤية ، بسبب ما كانت البلاد تحس به من فراغ بأن المخلص المنتظر اسمه محمد واسم أبيه يوسف . وشقى بهذا الأمر كثيرون من الكبراء أو الأمراء وافقت أسماؤهم ذلك . قتلهم أو سجنهم الموحدون في نوع من الانتقام للذات . وقد استطاع واحد منهم هوسليل امراء سرقسطة محمد بن يوسف بن هود أن يجمع معظم الشمل . كما أطاعته سبته ورباط الفتح وسلا بعض الوقت . ورأى أن يجتذب إليه الغطاء الشرعي فدعا للخليفة العباسي (المستنصر بالله) . وتلقى الخلع منه والتقليد بحكم الاندلس . واستعان ابن هود في أعماله الحربية بمغامر عرف بالمقدم الفشتي كان في الأصل من قطاع الطرق ومن حوله جماعة من أنجاد الرجال ، ظهوروا في شرقي الاندلس وسيطروا عليه . وغزوا وغنموا الكثير . وعرض عليه ابن هود أن يلتحق به فقبل . وصار قائد الجيش والاسطول معاً . ولكن أهل سبته ثاروا بهذا الرجل فركب البحر هارباً منهم . وكان ذلك آخر العهد به .

على أن محاولات ابن هود في إيقاف الاندلس على قدميها فشلت
لاصطدامها بمطامع الاسبان من جهة ومطامع الرؤساء الأندلسيين من
جهة ثانية . وبعد معارك وهزائم متعددة كان آخرها في شريش ٦٢٨
/ ١٢٣١ أمام قشتالة اغتيل ابن هود من قبل عامل المرية ابن الرميمي ٦٣٥ /
١٢٣٨ ، في حين تكالبت على أراضي المسلمين كل من قشتالة وأراغون
وأخذت في ابتلاعها قطعة قطعة . والمسلمون يستغيثون ولا مغيث . كان
فرناندو الثالث ملك قشتالة التي اتحدت مع ليون سنة ١٢٣٠ وهو الملقب
بالقديس (١٢١٧ - ١٢٥٢) أكثر الملوك قوة ونهماً . فانفرد
بالوادي الكبير وما عليه من المدن . أخذ جيان (٦٢٩ / ١٢٣٢) ثم
قرطبة (٦٣٣ / ١٢٣٦) ثم اشيلية وشريش (٦٤٦ / ١٢٤٨) وتبعها
شدونة وأركس وقادش حتى سنة ٦٥٩ / ١٢٦٦ وفي الوقت نفسه انفرد
ملك أراغون خايمة الأروال الذي حكم ٦٣ سنة (١٢١٣ - ١٢٧٦)
بشرق الاندلس فحاصر أبرز مدينة فيه بلنسية في البر والبحر . وفشلت
محاولة أمير تونس الحفصي في انقاذها واختراق الحصار المضروب عليها
فسقطت بعد شهر واحد من عودة اسطولها خائباً (صفر ٦٣٦ / ١٢٣٨) .
وسقطت معها المدن الشرقية . وكان خايمة قبل ذلك قد امتد في البحر
فهاجم الجزر الشرقية (الباليار) وتعاون مع أسطول جنوا وأهل
بروفانس على احتلال جزيرة ميورقة وأخذها من صاحبها التنملي الذي
استقل بها . وسقطت الجزيرة ودمر اسطولها بعد دفاع مجيد عنها سنة
٦٢٧ / ١٢٣٠ وانقطع بذلك الامداد البحري كله عن شرقي الاندلس .
وبلغت بهذه الغزوات الصليبية المتواصلة الجراة أن هاجم الجنويون ميناء
سبتة المغربي ، سنة سقوط بلنسية ، لفصل المغرب عن الاندلس وللتحكم
في مضيق العدوة وتجارته الهامة . ولما عجزت مجانيقهم أمام أسوارها المنيعة

اضطروا للفرار . ثم عاودوا الكرة مرة أخرى بمائة مركب واضطروا للعودة عنها بجزية تدفع لهم . . هكذا في أواسط القرن الثالث عشر بدا كأن العالم العربي الاسلامي كله لا الاندلس وحدها قد ضعف وقد طوق بالأعداء الشرسين المملوئين حماسة وتصميماً على خنقه .

وفي حين كانت تلك الهجمة الصليبية تفترس الاندلس ، كان الايبويون أصحاب مصر والشام واليمن يندرون الصليبين في الشام ويمنحونهم حتى القدس ، ويؤمنون لهم التجارة ، وبضائعها من اليمن . ويتقاتل بعضهم مع بعض على أشبار من الأرض واعداد من المدن يحكمها الأمراء العديدون منهم ، مهددين في الوقت نفسه بالخطر الداهم القادم عليهم من الشرق ، خطر المغول . يحسبون أن الخلافة العباسية في بغداد ومملكة خوارزم شاه تحميهم منه حتى انهارتا وانهاروا جميعاً معهما سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ وتكاملت بهذا الشكل حلقات التطويق والهجوم على العالم العربي الاسلامي . لكن كما ألقد المماليك في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨ مصر والشام من الغزو المغولي ، كذلك أنقذت غرناطة في الاندلس بعض الإرث العربي الاسلامي فيها . وكما استقر المغول في العراق وما وراءه وذهبوا فترة طويلة بتاريخه كذلك ذهبت الممالك الاسبانية بالتاريخ كله بعد ذلك . وقام البحر حاجزاً بينها وبين المغرب . وإن لم تسلم موانئها وأطرافه من أطماعها وغزواتها المدمرة .

وقصة الاندلس بعد الآن هي قصة غرناطة ومملكتها . وهي الفصل الأخير في الملحمة الاندلسية . ولم تكن «إمارة» غرناطة قائمة موجودة قبل أن تدخل الاندلس مرحلة التصفية شبه النهائية التي بلغت قممتها بين سنتي ٦٢٨ - ٦٥٩ / ١٢٣٠ - ١٢٦٠ وتذهب الممالك المسيحية بتجارها ومواردها وحضارتها .

وتبدأ قصة الإمارة الغرناطية سنة ١٢٣١/٦٢٨ ببروز محمد بن يوسف ابن احمد بن نصر على الساحة السياسية. كان بنو نصر يقيمون في أرجوة شمالي جيان وهم من سلالة سعد بن عبادة زعيم الخزرج أيام الرسول الأعظم فما هزم ابن هود عند شريش سنة ٦٢٨ ثم اغتيل حتى ظهر ابن نصر . ولعل للنبوة الشائعة يداً في طموحه— فأعلن نفسه أميراً على الأندلس. كان سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ / ١٠٨٢ قد ذهب بقسم من اتساع الدولة فلم يبق لها إلا ثلث شبه الجزيرة. ثم جاء سقوط سرقسطة سنة ٥١٣ / ١١١٨ فتقلص الأندلس حتى لم يعد يشمل ربعها وإذا كان قد تماسك بعد ذلك قرناً من الزمن بدخول الموحدين بعد المرابطين في ردايه ، فان نتائج هزيمة العقاب ذهبت بمعظم بلاده . فلم يبق اسم الأندلس يشمل سوى مملكة صغيرة في أقصى الجنوب الشرقي على نهر شنيل من جبال رندة واليرة المجاورة (البشرات أو سيرانفادا) مع السهول الساحلية الضيقة حتى وادي آش في الغرب والمرية ومالقة في الشرق . في هذه الرقعة قامت إمارة بني نصر التي عرفت بمملكة بني الأحمر أو مملكة غرناطة والتي مثلت وحافظت على تاريخ الأندلس وتراثه قرنين ونصف القرن .

بدأ ابن نصر أولاً باحتلال جيان ثم وادي آش وبسطة وفي سنة ٦٣٢ / ١٢٣٥ احتل غرناطة وجعلها عاصمته . واستطاع هذا الفارس العربي الأندلسي أن ينشئ في هذا الركن إمارة صغيرة اجتمع فيها كل مجد الأندلس : جمعت معظم الجماعات المسلحة المهاجرة من المناطق ، ومعظم تجارة المغرب مع اسبانيا وأوروبا وخلاصة الرقة والأناقة والحضارة الأندلسية معاً . ولم يكن هناك اتفاق بين الممالك المسيحية في سوى تدمير الدولة العربية الاسلامية والحلول محلها . وقد جاءتهم الفرصة بعد أن

نخلت البلاد من الحاميات القوية ومن إمكان معونتها من الخارج فهي في فراغ سياسي لا يملؤه أي أمير من الأمراء المتقدمين لانقاذها . وفيما عدا ذلك فهناك ثغرات وإحن ومنافسات بين الممالك الغازية مكنت ابن نصر أن ينفذ منها وأن يحافظ على الإمارة الصغيرة التي لحصت حضارة الاندلس .

لم يكن محمد بن نصر من النوع المثالي ولكن السياسي العملي الواقعي . وإذا لم يقبله الناس إلا على أساس أنه الحاكم المسلم الوحيد الباقي في شبه الجزيرة فانه بدوره لم يحكم بأكثر من الدفاع عن إمارته التي سميت تجوزاً بالمملكة . وفي سبيل ذلك اتفق مع ملك قشتالة ودفع له الجزية وأعانه على اشبيلية حين حاصرها ، بوصفه تابعاً من اتباعه . بهذه المكيفيلية استطاع أن يبقى على الإمارة التي كان يعتبرها الاسبان جزءاً من مملكتهم ولم يبقوا عليها إلا حفاظاً على العلاقات التجارية مع المغرب وعلى المجموعات الحرفية والزراعية المسلمة التي افتقدوها في الأراضي والمدن المحتلة وتجمع إنتاجها الحضاري فيها ، أو التي انصرف ولاؤها إلى الحكام المسلمين رغم بقائها في تلك المدن والأراضي . كانت حاجة قشتالة إلى بقاء هذه الإمارة تعدل في تلك الفترة حاجة هذه الإمارة إلى رضى قشتالة بها . وقد وفرت علاقة غرناطة بقشتالة عند نشوئها سبل الحماية لها . فقد كانت في الواقع محاطة بثلاث قوى نصرانية متحفزة هي بالإضافة إلى قشتالة مملكة أراغون من جهة ، ومملكة البرتغال الناشئة من جهة أخرى . وكلها تفوق غرناطة قوة .

كانت غرناطة في عصر الطوائف إمارة لبني زيري الذين بنوا أسوارها وقصورها والمساجد وفتحوا الشوارع والأقنية وجعلوا المدينة القائمة في السهل تحت جبل البياسين . وقد تسلمها منهم المرابطون سنة ٤٨٣ / ١٠٩١ فبقيت تحت ولايتهم حتى سنة ٥٥١ / ١١٦٠ حين أخذها الموحدون

مع ما أخذوا . وفي هذين العهدين كبرت غرناطة واتسعت حتى أصبحت من اكبر وأهم مدن الاندلس ويسمونها بدمشق . وصارت إمارة تابعة للسلطان مساحة مدينتها ٧٥ هكتاراً وفيها ٤٤٠٠ دار يسكنها نيف وستة وعشرون ألفاً فيهم كثير من الشاميين واليهود وقسم من البربر . وقد آلت بعد هزيمة العقاب إلى ابن هود . فلما اغتيل صارت إلى ابن نصر الذي احتلها وحكمها واحداً وأربعين سنة (٦٢٩ - ٦٧١ / ١٢٣٢ - ١٢٧٣) متخذاً خلالها لقب (الغالب) الذي ما يزال يطل في جنبات الحمراء من خلال شعار (ولا غالب إلا الله) .

حين مات ابن نصر كان قد بدأ بناء القصبية (القلعة) على مرتفع في الجنوب الشرقي من المدينة وعلى أنقاض قلعة أموية سابقة . واتخذ فيها داره التي عرفت بالحمراء بسبب لون حجارتها . كما بدأ في بناء أسوار للمدينة كلها . خلفه ابنه ابو عبد الله محمد (الثاني) فاستكمل بناء القصبية . وأتم جانباً كبيراً من السور المحيط بالحمراء . أما الحفيد محمد (الثالث) (٧٠٢ - ٧٠٨ / ١٣٠٢ - ١٣٠٨) فكان واسع النشاط لكنه أيضاً شديد القسوة مما أثار عليه مؤامرات الغرناطين فخلعوه . ثم مات غريقاً بعد سنتين . ونصبوا أخاه أبا الجيوش نصر . وإلى محمد الثالث يرجع الفضل في بناء المسجد الجامع بغرناطة .

توالى على حكم إمارة غرناطة بعد هؤلاء الأربعة الأول اثنا عشر أميراً توالى عهود الأولين منهم دون كبير اضطراب لكن الأواخر هم الذين اضطربت بهم الأرض ودخلت معهم الإمارة في دوامة الفوضى . أولهم أبو الحجاج يوسف بن محمد الذي ولي الأمر ثلاث مرات اعتباراً سنة من ٧٩٣ حتى ٨٤٠ تولى الإمارة ثم انتزعت منه . ثم توالى من بعده

أربعة أمراء حكم كل منهم مرتين . وكان آخرهم أبو عبدالله (الصغير) محمد بن علي صاحب الزفرة المشهورة والذي سلم مفاتيح غرناطة إلى ملكي قشتالة وليون : فرناندو وإيزابيلا . وانطفأت معه آخر الأضواء العربية في شبه الجزيرة . ليدخل العرب المسلمون هناك في ليل الاضطهاد ومحاكم التفتيش . ولحملوا اسم الموريسكيين . وقد وضعت النهاية للمحنة الأندلس سنة ٨٩٧ / ١٤٩٢ في السنة التي اكتشفت فيها أمريكا .

لبس بهم تفصيل الأخبار عن هؤلاء الذين استمر حكمهم في غرناطة قرنين ونصف القرن والهام هو المسيرة العامة للدولة التي تميزت بعدد من الملامح .:

١ - كان موقعها الجغرافي يجعلها محمية من الشمال بالمرتفعات المطلقة على نهر الوادي الكبير في حين كان البحر في جنوبها يجعلها منفتحة على المغرب تجارة وحماية . وهذا الوضع الجغرافي المميز أعانها كثيراً على البقاء كما أعانها على التحكم في سياستها العامة . فقد كانت جبال شلير والبشرات ذات التلوج تحميها من العارات الاسبانية الفاتكة . كما كان ساحلها الطويل الممتد من المرية شرقاً إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء يجعلها رغم صغر حجمها دولة بحرية هامة على البحر المتوسط . وكانت هذه السواحل تعرف منذ العهد الاموي بالبلاد البحرية وظلت عامرة بالأساطيل ودور الصناعة والمحارس التي ورثتها غرناطة عن العهود السابقة وأحسنست استغلالها . فالمرية مرسى الاندلس وهي ثلاث مدن في واحدة وعليها الأسوار والحصون وفيها القرى والزارعات، وتليها شلوين مركز قصب السكر ثم المنكب وفيها بدورها دار صناعة وحقول لقصب السكر والموز، ثم مالقة ولها ربضان عامران أحدهما عن علوها والآخر عن

سفلها. وفيها كذلك صناعة وتارنج ونخيل؛ ثم تأتي من (مريّة) حتى جبل الفتح حقول وزراعات إلى الجزيرة الخضراء المقابلة لسبتة. ومرساها من أحسن المراسي وهي آخر البلاد المعروفة بالبحر. وتتخلل هذا الساحل الطويل رباطات للحماية كما أنه أخرج عدداً من فادة البحر لغرناطة كأسمرة الرنداحي ومحمد بن السابطور الهاشمي، وأبي الحسن بن كماشة.

ومما يلفت النظر ما خطه بعض المؤرخين من أن الحكم العربي الاسلامي الأخير في شبه جزيرة لإيبيريا إنما كان في المناطق التي تجذرت فيها جذور الاسلام وهي نفسها المناطق التي زهت فيها الحضارة القرطاجية السامية الفينيقية في القديم. ومثل ذلك ينطبق على صقلية. وكان الخط الفاصل بين الاسلام والنصرانية في المنطقتين بوجه عام يطابق الحدود القديمة الفاصلة بين المدينة الفينيقية والمدينة الغربية. ولعل السبب في ذلك أن العرب الساميين في الحالتين انتقلوا إلى المناطق المقابلة لأرضهم في المناطق الأوروبية بحضارتهم وديانتهم وتأصّلت علاقاتهم وجذورهم فيها تجارياً ومصالح وأفكاراً.

٢ - تغيرت سياسة غرناطة مع طول الأيام التي عاشتها حسب الظروف. كانت سياستها على الدوام دفاعية لاهجومية بدأت وهي شبه تابع - على طريقة القرون الوسطى الأوروبية - للمملكة قشتالة. وكانت تقدم لها ما يقدمه الاقطاعيون هناك للملوك الذين يسودونهم من المال المقرر والمعونة الحربية عند اللزوم. كان الأمير الأول على ذلك. وساعدته قشتالة في حصار اشبيلية الاسلامية كما ساعدها ضد الأراغون بالقطع البحرية الممكنة؛ لكن هذه السياسة تغيرت بعد ذلك نتيجة قوة الدولة من جهة، وانشغال ملوك النصارى في القرن الثامن / ١٤م بالحصومات

فيسا بينهم . فصارت غرناطة على جانب حسن من الاستقلال لا تلتزم جانباً واحداً من القوى الكبيرة المحيطة بها وتستفيد من الحروب السجال التي كانت تقوم بسبب الرغبة في السيطرة الكاملة على شبه الجزيرة الأيبيرية بين قشتالة وأراغون من جهة وبين قشتالة والبرتغال من جهة أخرى وبين هذه القوى والمدامكة المغربية من جهة ثالثة . فهي تارة تتقرب من قشتالة ضد أراغون أو العكس وتارة تتقرب من البرتغال ضد قشتالة وتارة ثالثة تتقرب من المغرب مهددة به قشتالة أو غيرها . وقد مكنتها هذه السياسة المتلونة من الحفاظ على استقلالها مدة طويلة لأنها عرفت جيداً استغلال الحزازات بين هؤلاء المحيطين بها . وهذا ما جعل بعض المؤرخين يشيدون بالدبلوماسية الغرناطية ويصفونها أنها سياسة اللعب بكل الأوراق وبأنها مكيفلية ناجحة . وفي الفترة الأخيرة من عمر الإمارة وبعد أن نجح العثمانيون في فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ووصل الاسلام حتى فيينا في أواسط أوروبا وقويت شوكة المسلمين في البحر المتوسط وامتلكت غرناطة سلاحاً جديداً هو المدفع حاولت انتهاج سياسة القوة والهجوم تجاه القوى المحيطة . وأقواها قشتالة . ولكن الفتن الداخلية خانتها في النهاية فلم تستطع الإفادة من هذه الظروف وسقطت .

وكانت سياسة غرناطة البحرية مرتبطة بسياساتها العامة وهذا هو السبب في حرصها الشديد على أن يبقى مضيق جبل طارق سبيلها للتنفس الحر مفتوحاً لها بعيداً عن السيطرة النصرانية وآمناً للتجارة والحروب على السواء . وقد اضطرت في هذا السبيل إلى التنازل أحياناً للمغرب عن بعض قواعد الجنوبية المطلة على المضيق مثل جبل طارق نفسه والجزيرة الخضراء وطريف ورندة ليتولى المغرب نفسه مهمة الدفاع عنها ولا تتخاذلها رأس جسر للتدخل في وقت الجهاد . والواقع أن غرناطة كانت أكثر ميلاً

إلى الاعتماد على المغرب بسبب العاملين الديني والتجاري. وأول من بدأ هذه السياسة هو محمد الثاني (٦٧١ - ٧٠٢) الفقيه فقد سعى إلى التخلص من التزاماته الاقطاعية عن طريق التعاون مع دولة بني مرين التي ورثت العرش الموحدي في المغرب وورثت معه الحلم الموحدي بالانتقام من الدول النصرانية في الاندلس . ولم يتردد سلطانها أبو يوسف في التدخل في شؤون الاندلس تلبية للرغبات الشعبية لدى المغاربة والاندلسيين المهاجرين، بالإضافة إلى الرغبة في اكتساب الشرعية عن طريق الجهاد . وقد تنازل محمد الثاني عن الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف فاجتاز بجيوشه إلى الاندلس أربع مرات متواليات. وأوقع بالممالك النصرانية أذى كثيراً. لكنه عجز عن أحداث أي تغيير أساسي في الوضع الحربي فاكتفى المرينيون بتقديم المعونة العسكرية لغرناطة التي تكفلت بأرزاق قسم من الجند المرسل إليها . ولما وجدت أنهم أصبحوا عبئاً ثقیلاً على البلاد سعت إلى التخلص منهم على طريقتها بالاتفاق مع الفونسو العاشر ملك قشتالة على جليقة المريني. كما وحرضت ملك بني عبد الواد في الجزائر ليعرقل حملة جيرانه المرينيين على الاندلس . فلما وصل أبو الحسن رابع الخلفاء المرينيين إلى العرش قتل الحلم الاندلسي وطرح سياسة أسلافه الاندلسية جميعاً واكتفى بمصالح المغرب . وترك المرينيون غرناطة لسياستها ومصالحها . ولم يمنع ذلك من التعاون بين الطرفين في المصالح التجارية والسياسية في الفترات المقبلة. وكانت لغرناطة خلالها سياستها المعقدة الطويلة للحفاظ على جبل طارق تجاه جميع القوى .

٣ - تطوير غرناطة بالقوى المعادية جعل لها منهجاً خاصاً في السياسة الداخلية يتمم حاجتها الحربية ويسمح لها بأن تكون في حالة استعداد دائم للدفاع :

أ) فالشباب الغرناطي كان كاه يدرّب منذ الصغر على استعمال السلاح وعلى أساليب القتال . يقول الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب « والصبيان تدرّب على العمل بالسلاح وتعلم المثاقفة كما يعلم القرآن في الألواح » والمدونات الاسبانية تشير إلى أن جميع أفراد الشعب الغرناطي حتى الأطفال منهم قد اشتهروا بمهارتهم في استعمال القوس والنشاب وتريش السهام إلى درجة تثير الإعجاب . وما تزال أصداء ذلك قائمة إلى اليوم في الاحتفالات التي يمثل فيها القتال بين المسلمين والنصارى . Cristianos y Moros .

ب) وقد بلغ تكامل السلاح لدى غرناطة أنها توصلت إلى ابتكار المدفع قبل أوروبا بكثير واستخدمت البارود في ذلك . وقد أشار المؤرخون إلى امتلاك غرناطة لسلاح قاذف يحدث دويًا هائلًا وهو كما قال ابن الخطيب « الآلة العظمى » المتخذة بالنفط في كرة تتزل كالصواعق السماوية على البرج المنيع . وقد ألف مؤلف معاصر كتابًا في صنع المدفع . وأبرزت المصادر الاسبانية وهي تتحدث عن الحرب مع السلطان اسماعيل أبو الوليد ابن فرج (٧١٣ - ٧٢٥ / ١٣١٣ - ١٣٢٥) ما أحدثه هذا السلاح الحديد المميت من رعب في أوساط الاسبان .

ج) وتقلت غرناطة إلى اسبانيا فن الحرب الزناتية فقبيلة زناتة كانت تساهم بفرقة من جنودها في الجيش الغرناطي عرفوا باسم الغزاة يقودهم أمير منهم أو من بني مرين معرف بشيخ الغزاة . وكان لهذه الفرقة تكتيك جريبي خاص يقسوم على سرعة الكر والفر والحركة في الالتفاف حول العدو واستعمال الدروع الحديدية بدل الحديدية الثقيلة : واضطر الاسبان إلى تقليد هذه الفرقة حين عرفوا بأنفسهم وبقتلاهم فعاليتها .

د) ولزيادة في إرهاب الأعداء كانت تقام احتفالات خاصة دورية لعرض قوات الجيش أمام السلطان ورجال الدولة أو بعض الضيوف من البلاد المجاورة سواء أكانت إسلامية أم مسيحية . في استعراض للقوة لا يخفى معناه .

٤) قامت قوة غرناطة على مواردها التجارية وعلاقاتها مع المغرب وإيطاليا ومع الممالك النصرانية الإسبانية والفرنسية. فموقعها المتوسط المفتوح على البحر جعلها الوسيط التجاري كما جعلها تعمل على تشجيع التجارة والاستخدام القوي للأسطول التجاري، ذي الاعلام الحمر. وزيادة أجور ملاحيه لا الاكثار من عدده ومن صلاته . وبالإضافة إلى المواد النسيجية كانت تتاجر بالأخشاب والعييد والجلود والمعادن المصنوعة . كما تتاجر خاصة بالكثان والسكر . وكان اتجارها بالحريز مع جنوة في إيطاليا مكانة خاصة ويلاحظ بوضوح أن قوة غرناطة أو ضعفها كانا مرتبطين بهذا العصب التجاري صعوداً وهبوطاً سواء في الانتاج أم في المبادلات الخارجية . وقد كانت غرناطة في فترة الإمارة والخلافة والطوائف مركز انتاج السكر وتجارته مع الكثان والحريز وبخاصة مع أوروبا وحين احتل الصليبيون مرفئ المشرق في القرنين السادس والسابع / ١٢ ، ١٣ م تضاءلت هذه التجارة لأن الجمهوريات البحرية الإيطالية صارت سيدة البحر المتوسط وتجلب بضاعتها مباشرة من الشرق .

وتغير الوضع في القرن الثامن / ١٤ م بعد إخراج الصليبيين من أنشليم. وهكذا عادت فازعشت تجارة غرناطة التقليدية وساعدها ذلك على استيعاب المهجرة إليها وعلى الغنى والقوة الدفاعية . وقامت تجارتها هذه بصورة

خاصة مع جنوة منذ أواخر القرن السابع / ١٣ م . فعقدت معاهدة مع الأمير محمد (الفقيه) ثاني ملوك بني نصر تنص على أن يكون (كما كان الفرنجة مثلها في المشرق) فندق وكنيسة وفرن وحمامات في غرناطة .

وازداد هذا النشاط التجاري كثيراً بعد ذلك لاسيما في مالقة حيث امتلك الجنويون ستة فنادق وقامت لديهم مؤسسة للتأمين على السفن والتجارة ضد الأخطار التي تلحق بها في علاقتها مع غرناطة . وقويت تجارة الحرير فكانت له ٦٠٠ قرية تعمل به حول مالقة . ويخماه الجنويون لينسج لديهم . وكان السكر الغرناطي يوزع في أوروبا حتى شواطئ بحر الشمال . ويحمل إلى غرناطة الورق والصوف والمنسوجات والحبوب والزيت والملح . وثم دواوين لضبط الأمور والحباية . وكان الذهب يأتي غرناطة من موردين : السودان الغربي وجنوة معاً . وقد وصلت بذلك في القرن الثامن أقصى درجات استقرارها وازدهارها . وهذا كله جعل غرناطة أغنى مدن اسبانيا . . .

وكان لتجارها من الحرير مع ايطاليا مكانتها الخاصة . وهذا كله جعل غرناطة أغنى مدن اسبانيا ومكنها من الانفاق أحياناً كثيرة على الجيش المستأجر من المغرب ، وعلى أعمال العمران والرياسة والبناء . ويكفي تذكر قصر الحمراء ومافيه من مبالغة في الاناقة لبيان غنى الدولة الذي كان يشارك فيه الكبراء والتجار والملاكون الكبار بقصورهم الفخمة . ومن المؤسف أن دواوين هذه الدولة ومحفوظاتها دمرت بعد استسلامها . وأزيل الكثير من معالمها فليس لدينا أرقام حقيقية عن تجارتها الرائجة التي كانت مركز القوة فيها إلا ما قد يكون محفوظاً منها في محفوظات بيزا وجنوة وبلنسية وبرشلونة وغيرها .

لكن الاوضاع اختلفت في القرن التالي (٩ هـ / ١٥ م) فقد توسع البرتغاليون جداً في شواطئ افرقية الغربية وعبروا أنهارها الداخلية إلى قلبها يقايضون السكان بالملح والنحاس والقدور والقماش مسحوق الذهب . كما انتجوا السكر في الجزر الخالدات وآصور ونافسو به بقوة السكر الغرناطي مما أضعف التجارة مع جنوة وأدى بالتالي إلى ضعف غرناطة المالي والسياسي . وقد وصل ذلك أوجه في النصف الثاني من القرن ٩ هـ / ١٥ م . للدرجة إلغاء مؤسسة التأمين الجنوبية وضمحتل الفعالية التجارية وبالتالي القوة الغرناطية وبدأ اضطراب الدولة وفترة التدهور الأخير .

٥) كانت غرناطة في عهدها مركز هجرة نشيط سواء منها أو إليها . فقد نزحت إليها تدريجياً معظم الجماعة المسلمة التي كرهت البقاء تحت الحكم الأسباني ونزحت منها أو عن طريقها معظم الجماعات الاندلسية التي ملأت مدن سواحل المتوسط من سبتة حتى الاسكندرية بل حتى مكة ودمشق . كانت في وقت ما ملجأ لبعضهم ممن يلتمسون الأمن أو ممن يجتذبهم وهج الغنى . كما كانت في الوقت نفسه منطلق هجرة لأولئك الذين يريدون البعد والإيغال في البلاد الإسلامية . وقد كان تواتر الهجرة إليها ومنها يزداد في الأزمات كما جرى في أواسط القرن السابع / ١٣ م حين سقط معظم المدن الإسلامية وفي النصف الثاني من القرن التاسع أيام الفتن والفوضى فيها . حين أحس الناس بوضوح بقرب النهاية . وقد استفادت غرناطة كثيراً من الهجرة الوافدة التي لم تكن تأتيها من الأندلس فقط ولكن من شمالي افريقيا أيضاً، فقد حملت إليها الأعداد الوافرة من الحرفيين والبنائين العمرانيين والزراع وأصحاب المهن والعقول المثقفة ايضاً مما ضاعف سكانها وزاد في نشاط حركتها

الاقتصادية . ويكفي أن نذكر أن غرناطة الموحدين التي كان لا يزيد سكانها على ٢٥ ألف نسمة بلغت قبيل سقوطها فيما يقدرون نصف مليون. وإذا كان في الرقم بعض المبالغة فنصفه أو ربعه يكفي لبيان التكاثر السكاني فيها . أما الهجرة منها فقد كانت تشكل كما في تونس وفاس وسبتة وغيرها جاليات واسعة تنقل معها الحضارة الاندلسية بأجمل أشكالها . ومن أبرز المهاجرين إلى غرناطة ابن خلدون المؤرخ والمفكر المعروف ومن ابرز المهاجرين منها الوزير والكاتب المؤرخ الموسوعي لسان الدين ابن الخطيب .

٦) عنيت غرناطة عناية خاصة بفن الرياسة وهندسة المباني. وبسبب الغنى كان رواج سوق البناء في القرنين ٨ و ٩ / ١٣ - ١٤ م وكان الأمراء يمثلون دور الريادة في هذا الباب كما كان المهندسون البناؤون فيها يمثلون خلاصة تجارب الأبنية الاندلسية الباذخة والتي تمثلت من قبل في الزهراء والزاهرة وجامع قرطبة . والحمراء ، قصر بني نصر في قرطبة أية من آيات الهندسة الفنية الأندلسية .

وقد أبقى عليها لحسن الحظ جمالها الفاتن المذهل لأنها تقوم على هضبة تشرف على غرناطة فوق الجانب الجنوبي الشرقي منها اشراف الأكراد على آثينة . وقد تعاقب على تجميلها وتحسينها أربعة أجيال على الأقل زادوا في سعتها وزينتها المبهرة وبدائع الزخرف البارز المتقن فيها . فالزخارف الملونة تملأ جدرانها والسقوف وأقواس الأعمدة والممرات بلمعان الذهب والألوان المتسقة معه . هذا إلى الأفاريز والبالحات الواسعة أو المزينة بتمائيل الأسود والنواير ، وإلى مشاهد تصور الأمراء والفضة متكئين على الأرائك يتحاورون أو تصور الصيد والفروسية والطرء ، وإلى الأعمدة

الأنيقة الرشيقة وزخرفات الجص والقاشاني بالف رسم هندسي عدا الخطوط والكتابات والأشكال النباتية . فالحمراء اليوم جوهرة الذوق العربي والابداع الهندسي المترف والسخي في أرقى صورته . وتقوم من حول الحمراء جنات من الزهور والرياحين والظلال وأبرزها جنات العريف.

لم تبني الحمراء من الحجر أو الآجر ولكن من حجر صناعي خاص قوامه التراب والكلس والحصى يصلها بعضها مع بعض ألواح من الخشب . وقد أدار الغرناطيون حول الحمراء سوراً له شرفات حصينة وقلاع وأبراج جعلت منه الى جماله قصراً حصيناً وإن كان النظر يتوه عنه منشغلاً بالجنات وبدوامة الألوان والزخرف. إنها جنة للنظر لا للوصف على الورق .

وقد بقي من أبنية غرناطة معالم أخرى منها ثلاثة من أبوابها توجد في حي البيارين بعقودها العربية وبقايا من أسوار المسجد الجامع وبوائكه وقيصرية للتجارة . أما جامعة قرطبة فقد زالت ونقلت نقوشها إلى متحف الآثار. وأما حماماتها فلم يبق منها إلا واحد فقط. وتخرّب البيمارستان الغرناطي وبقي فندق واحد من عشرات الفنادق التي كانت تؤوي التجار ويعرف اليوم بمخزن الفحم ! وله بوابة فخمة مزينة بالنقوش والزخرف : على أن هناك في خارج غرناطة العديد من القلاع العربية التي ماتزال تحتفظ بأسمائها الأولى ومن الأبراج وأسوار المدن ومن القناطر الرائعة على الأنهر والأقنية المشقوقة للري وكلها تعبر بمختلف الأشكال عن مدى ما بلغه فن الرياظة في غرناطة من التقدم والترف .

(٧) ولم يكن تاريخ غرناطة أخيراً تاريخ حروب عابسة وعمل جاد مرهق اشتهر به الغرناطيون ، ولكنه كان بقدر عبوسه وجديته

مرحاً وذا بهجة خاصة . فالحياة الحربية والتجارية كانت تخفي وراءها حياة أخرى مكملتها وكانت شرطاً من شروطها هي حياة الانفتاح ودوار المرح . يظهر ذلك في كثرة الأعياد التي كانوا يحتفلون بها في مختلف المناسبات . فهم يعيدون في الأعياد الإسلامية كلها بما فيها الاحتفال بالمولد النبوي، وبالأعياد المسيحية أيضاً مشاركة للنصارى كعيد الميلاد وعيد العنصرة وعيد سان خوان الذي يحتفل به الأسبان في ٢٤ حزيران (يونيو) ويقابل عيد النيروز . ويضيفون أيضاً أعياد أخرى تقليدية في المواسم كعيد العصير الذي يقضون فيه عدة أيام في الكروم لقطف العنب وعصره وهو محصولهم الرئيسي في جو من الرقص والغناء فما يزال مستمراً إلى اليوم باسمه العربي Alaeir (العصير) .

ويلاحظ أن الغرناطين كانوا يحملون أسلحتهم معهم في مثل هذه الأعياد للتدرب ولمجاورة أراضيتهم للعدو. وحقولهم مكشوفة. كما أن مشاركتهم في الأعياد النصرانية كانت نتيجة التعايش بين معتنقي الدينين قرونًا طويلة . وكثرة المسيحيين بين السكان . والتسامح الإسلامي معهم ونظرة الرهزا القرآنية للسيد المسيح بمازج ذلك كله طائف من التقرب إلى الأجواء النصرانية السائدة .

وكانت ترافق الأعياد عادة ألعاب جماعية مايزال بعضها قائماً في أسبانيا، وكلها تقريباً أعمال للتدريب الحربي كنصب حلقة تسمى الطبله والرمي إلى داخلها بالسهام والخيول راكضة . أو المبارزات الفردية والجماعية بالقوى أو مصارعة الثيران ، هذه الرياضة التي وصفها لسان الدين ابن الخطيب وكانت الكلاب تطلق فيها على الثور بدل الرماحين لتخضع قوته قبل بروز المصارع إليه ليصرعه برمحه أو بالسيف .

كان الغناء والموسيقى بالطبع يرافقان هذه الأعياد . ذكر ابن الخطيب أن الغناء شاع في غرناطة زمن بني الأحمر فهو فاش حتى في الدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث . وحافظت الإمارة على التراث فيه . وللموسيقى والغناء في الأندلس لونهما الخاص وانتشارهما الشعبي الواسع . وما تزال الأندلس إلى اليوم تغني بألحان غرناطة القديمة كما لا يزال في الموسيقى التونسية لون من الغناء الشعبي يعرف بلحن غرناطة .

ومن الهام أن نلاحظ أن الكثير مما أوردناه عن غرناطة لم تكن وحدها تتميز به وإن برز فيها، ولكنه كان نتيجة تراث حضاري طويل عاشته الأندلس وتراكت آثاره فيها. فالموسيقى مثلاً والغناء والأنس والأعياد والأبنية بجناتها المزهرة وحركة الهجرة واستخدام الموارد في البذخ والتسامح الديني كانت كلها من التقاليد والعادات الاجتماعية التي تسود في الأندلس خلال العهد الاسلامي كله . كما أن نمو الحرف ورواج الحركة التجارية والقوة الاقتصادية كانت دوماً في قاعدة الازدهار لكل حكم أندلسي ناجح . وحركة الجهاد كانت مفروضة فرضاً على الحكام المسلمين بسبب حالة العداء التي أقامت الممالك النصرانية ضدهم . ولم يكونوا ليكرهونها باعتبارها تمنحهم الشرعية الضرورية والسمعة أمام الناس .

ومثل ذلك يقال في الحياة الفكرية لغرناطة . إنها لم تكن حياة خاصة بها ولكنها استمرار وتلخيص للفكر الأندلسي كله ، وإن تناقص فيها عدد البارزين والمبدعين، وخفت فيها موارد الابداع جراء الهجرة المستمرة التي أفقرت البلاد باستمرار . وكثير من الأدمغة الهاربة كانت تفضل التحرك إلى داخل البلاد الاسلامية بدل البقاء على الطرف القلق المهدد للعالم الاسلامي .

هكذا لم تلمع خلال العصر الغرناطي الذي دام قرنين ونصف القرن ولا ربع الوجوه التي لمعت في العصور السابقة سواء في العدد أم في سعة الثقافة وكثرة التأليف ونوعية الانتاج . كانت غرناطة في الناحية الثقافية تعيش على اصداء الماضي . ولقد قسم أحد المستشرقين العصر الغرناطي في هذه الناحية إلى ثلاث فترات :

— فترة غلب فيها التأثير النصراني وكان ذلك على أيام دولة أولاد نصر الذين كانوا أفصلاً وأتباعاً صرحاء للملوك قشتالة .

— وتلتها فترة جاءت في القرن الرابع عشر وكانت بين بين اختلطت فيها المؤثرات المسيحية مع المؤثرات الشرقية الأفريقية وتفاعلت بعضها مع بعض في كيان ثقافي سياسي خاص .

— وأخيراً كانت الفترة الثالثة خلال القرن الخامس عشر والتي غلب فيها الطابع المشرقي الأفريقي . على مملكة غرناطة وثقافتها بصورة واضحة جداً .

وهذا التقسيم يتساوق مع الأوضاع السياسية للمملكة ومع علاقاتها الاقتصادية إلى حد كبير . ولكنه لا ينطبق تماماً على الحياة الثقافية التي تقلصت على مقدار ما تقلصت الرقعة الجغرافية للأندلس وعلى مقدار نزفها الفكري المستمر ، وهكذا استمر الناس يقولون الشعر من فصيح وزجل . لكن أعداد المبرزين منهم تراجعت فلست تستطيع أن تعد في القمة أكثر من اثنين هما الوزير المؤرخ الطبيب السياسي لسان الدين ابن الخطيب (٧٧٦ / ١٣٧٤) ومنافسه ابو عبد الله محمد الشريحي المعروف بابن زمرك وكان تلميذاً له ثم صار عدواً . وقد وصف الأول عواطفه في أحواله من جد وهزل وعنى الثاني بالبساتين والزهر والحب :

أما الزجل فقد أغرم به الغرناطيون ونظمه حتى كبار العلماء كالنحوي أبي حيان ابن حيان وابن عبد العظيم الوادي آثى بالاضافة إلى ابن الخطيب نفسه وابن زمرك . ويذكر ابن خلدون أنه حين زار غرناطة وجد الزجل هو الفن الشعري السائد لكن القلائل هم الذين برزوا فيه . ذلك أنه لغة الناس العادية يومذاك . وكان الكثير يمزجون في لغتهم بين الرومانس (لغة الاسبان فيما بعد) وبين العربية الدارجة .

ويبدو أن شغف الناس بالتاريخ لم يفتر في غرناطة ولكنه أيضاً لم يزدهر . ولا تكاد تخصصى الكثيرين فيه كإبن أبي القاسم الرافدي الذي كتب (تاريخ الاندلس) وابن الفارق السدي ألف (تاريخ بني نصر) المبكر . وأبو بكر بن خمسين الذي كتب تاريخ الجزيرة الخضراء وابن الحاج التلفيقي صاحب تاريخ المرية وبجاجة ، وابن خاتمة الذي وضع كتاباً في وصف الطاعون . لكن الذي سيطر على الحياة الثقافية في القرن الثامن / ١٤ هو دون شك لسان الدين ابن الخطيب . لقد طغى بمواهبه المتعددة على الحياة الثقافية في غرناطة فله مشاركة في كل شيء : في الشعر كما في الطب وفي الفلسفة كما في التاريخ والفقه والأدب . فهو موسوعة العلوم الغرناطية . ويحسب على علماء غرناطة أيضاً ابن خلدون وقد عاش في تلك المدينة ردهاً من الزمن ويعده أهل تونس منها لأنه تونسي الأصل والمنشأ كما يعده المشاركة فيهم لأنه عاش أيضاً في دمشق والقاهرة . و« مقدمة » تاريخه ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر أشهر من أن تذكر . وهو الرائد في علمين جديدين ابتكرهما : علم الاجتماع وفلسفة التاريخ .

ولا نكاد نجد أحداً من مؤرخي الأدب يماثل من ظهر في العصر المرابطي — الموحيدي . والاسم الوحيد الذي يلوح هو اسم محمد بن علي

ابن هاني السبتي . أما في الجغرافيا وأدب الرحلات فتجد العديد . ولعل لنشاط هذه الحركة التنقلية يدأ في ذلك . فقد كتب أبو عمر النوشري رحلته في المغرب ومصر والشام، وسجل ابن رشيد السبتي الفهري رحلته بدوره كما سجلها ابن جابر الوادي آشي ، وأبو البقاء البلوي . على أن أشهر الجميع والذي فاق ماركو بولو ، في طول الرحلات وفي مسالكها وذكر غرائبها هو ابن بطوطة اللواتي الطنجي . وقد أملاها في غرناطة .

وبرز في الفقه علماء محدودون منهم القاضي أبو بكر محمد بن عاصم القبسي وولده أبو يحيى ، وأبو الحسن سلام الباهلي وبرز في آخر أيام غرناطة متابع لابن خلدون هو ابن الازرق الاشبيهي والأديب أبو عبد الله ابن الحداد وأبو الحسن القرشي البسطي وأبو الحسن التجيبي الزقاق، وأعظم هؤلاء الوزير الكاتب ابو عبد الله العربي المعروف بالشريف العقيلي .

والأمر في التصوف كالأمر في غيره فلا نكاد نجد سوى ابن عباد الرندي النفزي الذي ختم حياته إماماً وخطيباً بجامع الفرويين في فاس . وكذلك لا نجد من علماء الرياضيات والفلك سوى ابن البناء الغرناطي أبي العباس الأزدي، وهو فيلسوف لغوي صوفي وأبي بكر محمد الرقوطي وابن الشماط السرقسطي الذي رأس أول مدرسة اسلامية أنشأها ألفونسو العاشر في مرسية سنة ٦٧٦ / ١٢٦٩ ثم رحل الى غرناطة . ومن أجل الرياضيين الفلكيين ابن الشماط السرقسطي وابن أبي شاعر وكان مهندساً فلكياً هاجر إلى الشام وابن الزكان الأوسي ولم يكن له مثيل في الرياضيات ولعل أشهرهم هو أبو الحسن القلصادي الذي ظهر في القرن التاسع / ١٥

ورحل إلى المشرق ثم عاد يقيم في غرناطة وانتهى في المغرب وهو آخر
العظماء من الرياضيين . . .

ولعل من أسباب هذا الشح في الحياة الثقافية في غرناطة ضغط التوتر
الحربي على الناس ونزيف العقول المستمر بالاضافة إلى ضيق الرقعة
الأرضية بالنسبة إلى اتساع الأندلس السابق . . وعلى أي حال فقد كانت
الأندلس، في ختام العصر الغرناطي، قد انتقلت بكل تأثيرها الحضاري
إلى المغرب خاصة لتواصل الحياة هناك ولكن ضمن مؤثرات فكرية
وفنية وعمرانية واقتصادية افريقية وجدت نفسها فيها وتفاعلت معها
لتكون حضارة المغرب .

* * *

النهاية والأصداء

في أواخر القرن التاسع/ ١٥ م جاءت نهاية غرناطة. قتلت قتلاً . لم تكن نهايتها نتيجة شح في الموارد أو اضطراب فيها أو تغير في قاعدتها الاقتصادية أو شيخوخة في الفكر . ولكنها جاءت نتيجة قيام مملكة مجاورة لها أقوى منها بكثير ، واقتطاعها لأراضيها مدينة بعد مدينة . واحتجاز مواردها التي ما انفكت تتناقض في المركز لهذا السبب . وقد اشترك في رسم هذه النهاية :

— الفتن الأسرية التي مزقت الإمارة نتيجة تكاثر الطامعين في الحكم وتناحرهم المأسوي :

— حماسة رجال الكنيسة لفكرة طرأت عليهم منذ زمن ورافقت فكرة الاسترداد للأراضي الاسبانية وهي فكرة التصير . أي دفع الصليبات حتى نهايتها . ومردّها إلى أمرين : نجاح قشتالة وأراغون في التوحد وفي ازدياد نفوذهما على غرناطة وصيرورتها دولة مسيحية كبرى واحدة، ثم شدة ألم الكنيسة ذاتها والبابوية من نجاح العثمانيين المسلمين في النفوذ إلى داخل أوروبا حتى فيينا واحتلال القسطنطينية سنة ١٤٥٣م . زاد في نقمة رجال الدين المسيحي . ودفعهم إلى زيادة الحماسة للانتقام من المسلمين بأي مكان في صليبية جديدة .

— عدم جدوى الدبلوماسية التي اتبعتها غرناطة طويلاً في تغلب الاعتماد تارة على المغرب وأخرى على قشتالة أو غيرها بعد أن تغيرت الموازين الدولية بتضخم قشتالة بعد التوحد مع أراغون وضعف المغرب الشديد بسبب الفتن الداخلية فيه .

— تأكد قشتالة من عدم نهضة المماليك في مصر أو الحفصيين في تونس أو العثمانيين في البلقان لانجاء غرناطة. لأن هذه الدول لا تملك القوى البحرية للوصول، ولأن غرناطة وشيوخها والفقهاء طالما بعثوا يستغيثون فكانت الاستغاثة تنتزل في آذان صماء. ولم يكن غريباً أن يتنبأ الكثيرون وأن ينتظروا النهاية للملحمة الاندلسية .

الاسبان يعتبرون اعتصام محاربيهم الثلاثين في كوفادونفا سنة ٧١٨/١٠٠ بدء حرب الاسترداد التي انتهت بسقوط غرناطة. لكن هذه الحرب لم تبدأ في الواقع إلا مع بدء الحركة الصليبية في القرن الخامس/١١ م. وفي اسبانيا بالذات قبل بدئها في غيرها . وقد كانت الحركة تحمل طابع الحرب الدينية السياسية لا طابع الاسترداد ولا طابع توحيد اسبانيا المسيحية . فلم يكن لهاتين الفكرتين وجود في تلك الأوقات وإنما وجدتا ونضجتا بعد القرن الخامس/١١ م نتيجة الانتصارات التي حققتها الممالك النصرانية بعد أن هجرتها دولة الاندلس لمصيرها في الشمال طويلاً .

ولم يكسب توحيد اسبانيا النهائي رواجه إلا بعد سقوط مدن الوادي الكبير في ايدي قشتالة حول أواسط القرن السابع/١٣ م . وفي ذلك الوقت نبتت فكرة التنصير . ولم يصبح التوحيد اكيداً إلا يوم زواج فرديناند ملك الأراغون بأيزابيلا ملكة قشتالة ٨٧٤ / ١٤٦٩ ولم تنضج فكرة التنصير وتصبح سياسة لهذه المملكة إلا بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧/١٤٩٢ .

بدأ السقوط النهائي حين أساء الأمير أبو الحسن علي بن سعد (٨٦٨ - ٨٩٠ / ١٤٦٣ - ١٤٨٣) (١) تقدير الظروف الدولية والخاصة، وجرب التحول بسياسته من الدفاع إلى الهجوم، فامتنع عن دفع الإتاوة للملك قشتالة حين رفض هذا تجديد الهدنة معه وقال لرسوله : « قل لمولايك أن ملوك غرناطة الذين اعتادوا دفع الاتاوات قد ماتوا وان دار السكة بغرناطة لانسك الآن ذهباً أو فضة وإنما سيوفاً ورماحاً » . ويقولون إن فرناندو غضب حين سمع ذلك وقال «غرناطة ! غرناطة ! سوف أنتزع حباتك حبة حبة (٢) » .

وبدأت الحرب التي دامت بعد ذلك عشر سنوات. لعبت فيها الفتنة الأهلية الدامية أسوأ الأدوار . وقد تهور السلطان أبو الحسن علي ففتح قلعة الصخرة، غربي رندة سنة ٨٨٨ / ١٤٨١ وهي من املاك قشتالة. وسادت إثر ذلك موجة من الروح المعنوية في غرناطة ما لبثت أن انتكست حين أدخل السلطان إلى الراحة والملذات. واحتجب عن الناس وأهمل الجند والجهاد ففاجأه ملك قشتالة في السنة التالية باحتلال الحمة وهي المدخل إلى غرناطة من الجنوب الغربي قاطعاً بذلك طريق التجارة البري عنها وطريق الاتصال مع جبل طارق . وخرج ابن أبي الحسن (وهو أبو عبدالله الصغير نفسه) على أبيه بتحريض من أمه، فيما يقال، لأن أبا الحسن تزوج عليها فتاة إسبانية وآثر أبناءها . واحتل أبو عبدالله غرناطة وتجرأ فهاجم بلدة اللسانة في قشتالة وهو في الطريق إلى قرطبة ولكنه وقع أسيراً فعاد أبوه إلى غرناطة . ثم مالبت أن تنازل عن الملك لأخيه محمد المعروف

(١) تمخل حكمه فترة انقطاع حكم فيها ابن عبدالله الصغير في سنة ٨٨٨ / ١٤٨٢

(٢) غرناطة تعني في الاسبانية ثمرة الرمان .

بالزغل (تعني الشجاع) واستغلت قشتالة في هذه الفوضى أسيرها فأطلقت بعد توقيع معاهدة لعامين تجعله من اتباع الملك . وأعانتة ضد أبيه بجيش احتل جانباً من العاصمة فغدت مقراً لسلطانين في وقت معاً . في حين كان جيش قشتالة يبتلع مدن غرناطة واحدة تلو الأخرى ومنها بلش ومالقة ثم لوشة . وحين عاد الزغل فاشلاً من معركة مالقة وجد غرناطة تحت حكم أبي عبدالله الصغير في ظل الحراب الاسبانية . وانقسمت الدولة في احلك أوقاتها وأخرجها قسمين : غرناطة ويحكمها أبو عبدالله الصغير ، ووادي آش حيث التجأ الزغل . ولم يلبث هذا الرجل حين حاصره الاسبان أن هادهم وانتقل إلى البر المغربي يجتأ آلامه في تلمسان ويعيش من أحباس الفقراء . واحتل الاسبان وادي آش والمدن والثغور الأخرى .

بقي أبو عبدالله الصغير هو الوحيد في الساحة ولكنه ليس يملك إلا على مدينة واحدة وبعض أرباضها . وكشف الاسبان عن نواياهم في النهاية حين بعثوا برسالة إلى ضيفهم أبي عبدالله يطلبون منه التسليم . وفي اللحظات الحرجة أدركت أبا عبد الله النخوة ، ومع أنه كان يعرف ضعفه ، إلا إنه رفض الخنوع واستمد من الضعف قوة وقرر الدفاع عن غرناطة حتى النهاية !

وكانت النهاية معروفة . احتل الاسبان الحقول القريبة من غرناطة . وحاصروها . وبنوا فيها حصناً متوقعين طول الحصار . أتلفوا الحقول والزرع . قطعوا كل اتصال للمدينة بالخارج . هدموا القرى . وحين كلب الشتاء وهطلت الثلوج ، وتقطعت السبل ، جاعت المدينة أسوأ الجوع . وعظم البلاء بعد حصار استمر سبعة أشهر . واجتمع كبارها في

قصر الأمير بالحمراء ليقروا المصير والاستسلام . قائد واحد رفض هو موسى بن أبي غسان . قال : «تركوا العويل للنساء فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لأرسال الدمع ولكن لتقطر الدماء . ولئن لم يظفر أحدنا بقمبر يستر رفاته فلن يعدم سماء تغطيه . وخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها . . . »

وفي حين خرج ابن أبي غسان ليموت منتحراً في القتال كان المجتمعون بالحمراء يشكون وقد الاستسلام . كان ذلك في صفر من سنة ٨٩٧/كانوان الأول ١٤٩١ . وسلمت المدينة على أن يتم تسليمها بعد شهرين ان لم يصلها خلاصها المدد . ولم يصلها المدد أبداً . ويقال إن أبا عبد الله الصغير عقد مع ملك قشتالة اتفاقيتين للتسليم إحداهما سرية والأخرى علنية لإرضاء الناس . وليس بهم ذلك ما دام ملكا قشتالة قد استلما مفاتيح غرناطة وتركوا لعبد الله الصغير أن يلقي آخر نظرة عليها من عقبة « الزفرة » . . . ويقولون إن أمه رأت في الدموع فقالت له :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ويلومون أبا عبد الله وإنما كانت مأساته نتيجة تصرفات حمقاء قام بها أكثر من أمير قبله ، وشارك هو ، في النهاية ، بها . فانفجرت في وجهه . ودخل جيش قشتالة غرناطة التعيسة في ٢ كانون الثاني سنة ١٤٩٢ وفي حين كان أبو عبد الله يبحر إلى المغرب نحو فاس ليموت منسياً سنة ٩٤٠ / ١٥٣٣ وبدأت مأساة بعد استسلامهم للموريسكيين ! (١)

(١) أتت هذه التسمية من تصغير الكلمة الاسبانية مورو والتي تعني المراكشي المسلم وهي بدورها آتية من كلمة «ورتيايا» ، وفيها معنى الاحتقار .

هؤلاء هم المسلمون الذي بقوا في مدنهم وأراضيهم تحت الاحتلال الاسباني . ماتعلم الاسبان من تسامح المسلمين شيئاً . ولا قدرُوا هذا التسامح . وعلى الرغم من العهود والشروط التي أقاموها على أنفسهم بالحفاظ على حريات المسلمين وأموالهم وأرضهم وبخاصة على دينهم فقد بدأت على الفور حملة التنصير . كان غرور المتنصرين يدفعهم إلى المدى الأخير في معاملة المغلوبين ، ومحاولة إنهاء « المشكلة الاسلامية » في اسبانيا بطمس هويات المسلمين بكل وسيلة . وانقلب الناس ولكن بصعوبة كبيرة وبعد مأساة لا تنتهي كما شاء الغالبون ، فتنصر الكثير منهم كما هرب الكثير وقتل الكثير . . . والشاعر الاسباني المعاصر فيلاسباسا يقول : لو حك أحدنا جلده لظهر تحته جلد العربي المسلم . ومع ذلك فان المتنصرين الجدد ظلوا على الدوام موضع شبهة وريبة لئلا يكون تنصرهم رياء . أبداً ما اطمأن إليهم رقباء الكنيسة وجواسيس الملك . فكان المجتمع الاندلسي السابق بمسليميه ومسيحييه الجدد عرضة للاتهام أمام ديوان التحقيق والتفتيش .

والمأساة الموريسكية أو قصة التنصير الاجباري الطويلة ومحاكم التفتيش ، ظلت تحكم اسبانيا ، إلى أن تلاشت حدتها ، نحواً من قرن ونصف قرن في أطول وأسوأ اضطهاد عرفه التاريخ . ولا يماثله إلا ما قام به الاسبان أنفسهم (١) وفي الفترة نفسها ، مع هنود أمريكا الحمر حتى قضوا على ٩٠ بالمائة منهم . قاد حملة التنصير رجال الدين في اسبانيا وانساق معهم الملوك طائعين تدينياً وسياسة . ولعل السبب في شدتها أن اسبانيا في الوقت الذي انتصرت فيه على غرناطة ، وفي السنة نفسها ، اكتشفت

(١) . ما تقوم به الصهيونية اليوم في فلسطين .

امريكا وتدفق عليها نهر من الذهب من امبراطورية لاتغيب عنها الشمس .
وهذا الوضع الاقتصادي جعل كل شيء ممكناً في نظرها . وجعلها اكثر
إصراراً على جعل اسبانيا إن لم يكن العالم ، على النصرانية . وكان الكفر
أو الزيف الديني هو السيف المصلت ، وهو الوسيلة لتسيير السياسة والدين
(أو الملك والكنيسة) في خط واحد .

عملية التنصير كانت تعني عملياً حكم الاعداء على أمة بأسرها عن
طريق التذويب الاجباري في المجتمع المسيحي الاسباني أو القتل أو النفي
من البلاد . وأصابت جانبياً اليهود مع المسلمين المدجنين والموريسكو
على السواء وقد تعبت اسبانيا كثيراً وأتعبت المسلمين أيضاً في هذه
المحاولة . لجأت إلى أقصى الوسائل حتى التعذيب الجسدي الوحشي
وتجسس الأبناء على الآباء وسحق العظام والسجون السرية والحديد
المحمى لتقتلع جذور ٨٠٠ سنة من الحضارة العربية الاسلامية . وبسبب
عمق هذه الجذور وتفوقها النوعي في الحضارة كان ذلك الاستعصاء
وكان ذلك الموت البطيء لها على مدى قرنين . وكانت تلك الأصداء
التي ما تزال تصرخ في اسبانيا بالماضي العربي حتى اليوم .

ومن العبث التفصيل في صنوف الاضطهاد والتعذيب التي تعرض
لها من سماهم الاسبان بالموريسكيين احتقاراً لهم . إنها مأساة جماعية
ترتعش لها أقسى القلوب . ولكن الملوك ورجال الدين مارسوها بدم
بارد مطمئنين إلى وجدانهم الديني ولم يظهر أثر هذه المأساة الاقتصادي
على اسبانيا التي حرمت بهذه العلمية من أفضل عناصرها الحرفية والتجارية
والفكرية والفنية قتلاً وتشريداً وتعذيباً وسجناً لأن دفق الذهب والعبء

من امريكا غطى على ذلك لفترة طويلة . ولكن آثارها ظهرت فيما بعد .
فحل الخسوف بها وعم الظلام والحمول منذ أواسط القرن السابع عشر
حتى مطلع القرن الحالي. وظهر تخلفها الذي كانت فيه في العصر الوسيط
بأجلى مظهره .

بدأت المأساة عملياً قبل سنة من انتهاء القرن الخامس عشر حين
عين الكاردينال خيمتر دو سيسنيروس ، كاهن الملكة ايزابيلا الخاص ،
لمهمة حمل المسلمين على التنصر ناقضين بذلك عهودهم التي عقدوا عند
استلام غرناطة وغيرها . والواقع أنها بدأت في قشتالة قبل ذلك بوم صدر
المرسوم البابوي باقامة محاكم التفتيش سنة ١٤٧٨ قبل ١٤ سنة من سقوط
غرناطة بل كانت موجودة في مملكة آراغون منذ مطلع القرن الثالث
عشر .

صادر الكاردينال أولاً الكتب العربية المتصلة بالدين الاسلامي
فجمعت مخطوطاتها اكواماً في ساحة غرناطة وأضرمت فيها النيران .
ثم أنشأ ديوان التفتيش للتحقق من عقيدة الموريسكيين بعد أن أجبروا
إجباراً على التنصر . وتنصروا رثاء اليئاس ، وهم يضمرون الاسلام .
وعملوا بأسماء اسبانية ، مرغمين تحت طائلة التعذيب أو الاحراق أو
القتل . وفي سنة ١٥٠١/٩٠٦ صدرت الارادة الملكية بأن على الموريسكيين
في قشتالة وليون إنكار دينهم الإسلامي أو الجلاء عن البلاد . وتحملت
جموع واسعة من الإندلس إلى المغرب وتونس وإلى مصر . أما الباقون
فكان مجرد الشبهة فيهم من مزارب حمام جار ، أو همس
وشاية أو أوراق منسية أو غديم الصلاة في الكنيسة يكفي لتحويلهم إلى
جحيم ديوان التفتيش. أصابت هذه المحنة الجماعية ما بين ثلاثة إلى أربعة
ملايين مسلم في الإندلس عاشت عدة أجيال منهم في حالة رعب دائم .

وخوف من ظلمة السجون ونيران المحارق عدا السعايات ، ولجأ بعضهم إلى كتابة لهجتهم الرومانسية بأحرف عربية (وهو ما يسمى بالأنجيمادو) للتستر والتعمية . وفي سنة ١٥٥٦ منع المسلمون من استخدام لغتهم أو ملابسهم أو عاداتهم في الاستحمام . وهدمت الحمامات باعتبارها أثراً إسلامياً حضارياً . وفرضت الغرامات الثقيلة . ولم يكن المسلمون في كل ذلك كالخراف المستكينة ولكنهم عاشوا حياة مزدوجة : واحدة ظاهرية للحياة العامة وأخرى داخلية لأنفسهم . حتى إذا بلغ الاضطهاد أوجه لجأوا بعد الاحتجاج والشكوى إلى الثورة . ثاروا ثورات صغيرة مهيضة الجناح محدودة السلاح في أحواز سرقسطة ، وفي منطقة بلنسية وكان فيها زهاء ٢٧ ألف أسرة متصلة بجزءاً بالمغرب . ولذلك لقيت ثورتها المقاومة حتى بالمدافع . وقبلت منهم في النهاية الغرامات . وخشي نبلاء الأراغون وسادتها على الطبقة الزراعية والحرفية فيها وشرحوها مساوئ ذلك للملك ولكنه لم يصنع إليهم بل إلى رجال الدين . فتم تنصيرهم جميعاً سنة ١٥٢٦ . ومنعوا من لبس الحرير والذهب ومن الملابس العربية . فثاروا في بلنسية كرة أخرة ومزقوا ، أو جرى نفيهم إلى الشمال . وثار الموريسكيون في غرناطة أيضاً على الاضطهاد المتصل .

وعلى الرغم من تنصر الكثير منهم فقد كانوا يعدون مواطنين من الدرجة الثانية . ومنعوا فترة من السفر في البحر ومن اقتناء السلاح ومن الحديث بالعربية ومن تحجب النساء ومن الختان والحمامات حتى بلغ اليأس حد الثورة . وتزعم الفكرة رجل يقال له فرج بن فرج ولكنه بعد أن احتل قسماً من غرناطة فشل . وإنما بقيت الثورة بعده . وأختار الموريسكيون للزعامة فتى أموي الأصل احتفلوا بتتويجه أواخر سنة ١٥٦٨ وتسمى بمحمد بن أمية ، صاحب الأندلس وغرناطة .

وقام الثائرون بكثير من الأعمال الانتقامية واعتصموا بجمال البشرات . وكان جزاء من يقبض عليه من زعمائهم نزع لحمه عن عظامه حياً ثم تمزيق اشلائه واحراقها . وفتك الاسبان ، في مذبحه مروعة بمائة وخمسين من أعيان الموريسكيين أخذوهم رهائن في غرناطة . . مما زاد الثورة ضراماً . لكن محمد بن أمية قتل غيلة بيد بعض جنده . فأختار الثائرون زعيماً آخر يعرف بابن عبود وتسمى بعبد الله محمد استطاع أن يجمع حوله مايزيد على عشرة آلاف محارب بين مجاهد ومرترق ومغامر فسارت إليهم الجيوش الاسبانية واحداً بعد الآخر فأفنوا من في وادي آشق من الموريسكيين حتى الأطفال وامعنوا في التقتيل والتخريب وحشدت اسبانيا حوالي ١٥٠ ألف جندي على رأسهم شقيق الملك وطوقوا منطقة الثورة وأقبلوا يستأصلون جذورها موقعا بعد موقع واستطاعوا في النهاية اجتذاب بعض الخونة بالوعود . فقتل ابن عبود ورمي بجثته إلى الاسبان الذين استقبلوها في غرناطة بموكب ضخم وحكموا عابها بالاعدام . فقطع رأسها ثم جرت في شوارع المدينة ومزقت قطعاً ثم أحرقت في الميدان . أما الرأس فنصب على سارية في بعض الضاحية . وخمدت الثورة وإن لم تخمد النفوس وعاد الاضطهاد كما كان وأشد .

في سنة ١٦٠٩ صدر القرار الأخير بالطرد الجماعي . وأخرجت الجماعات الاسلامية من بيوتها ومخترقاتها ومزارعها قسراً . وصودرت أملاكها . ويذكرون أن عدد هذه الجماعة الاخيرة بلغت نصف مليون في أقل تقدير نقلوا إلى المرافئ الافريقية أو ركبوا الأشربة إلى مختلف البلاد الاسلامية على البحر المتوسط وبخاصة .

تونس ومصر . كانت الامبراطورية الاسبانية قد بلغت يومذاك أوج قوتها واتساعها ولم تعد تأبه لردة فعل محتملة من الدولة العثمانية التي أصمت ، على أي حال . أذنيها عن أي نجدة فعلية للأندلسيين فيما عدا بعض الجهود الدبلوماسية . ولقد يكون من دوافع هذا الإجماع الاضطراري كثرة أساطيل القرصان في الخوض العربي للمتوسط . وتعاون « الموريسكيين » معهم ، لاسيما بعد أن أحتل القرصنة ، في ظل العلم العثماني مناطق عدة من شمال افريقية . وعلى أي حال فان القرصنة بدل أن تقل ازدادت لأن أعداداً واسعة من أولئك المطرودين التحقت بالقرصنة !

وهضمت اسبانيا بعد ذلك على مهل الجماعات المسلمة المستترة فيها.. يبقى أن نذكر أن الثقافة العربية الاندلسية، رغم فقرها واختناقها، وسد المنافذ عليها، ومنع تفاعلها مع العالم العربي الاسلامي، بقيت حية لدى الموريسكيين. ولكن على نطاق ضيق . يتفق مع حاجاتهم . وأكثر كتب الخزائن الموريسكية . كانت ذات موضوعات دينية أو قصص خرافية أو تعاليم شرعية . وقد كان أصحابها يخفونها أشد الخفاء ومنها: الكتاب الشقوبي. وهو مختصر سني في أهم واجبات الاسلام والسنة . كتب باللغة القشتالية . ومنها في الشعر : قصيدة يوسف وهي مقطعات بالقشتالية أيضاً كل أربعة أبيات منها على قافية واحدة . وكثيراً ما كان الموريسكيون يستخدمون الشعر لتحفيظ الأبناء واجبات المسلم . ومن الشعراء خوان الفونسو الذي هاجر إلى تطوان وكتب هناك شعراً يقول فيه بالقشتالية أيضاً مهاجماً النصارى :

أيها الغراب الاسباني اللعين

باناشر الوباء . ايها السجنان البغيض

هأأنت ذا واقف برؤوسك الثلاثة

على أبواب الجحيم ! ...

ومن الشعراء كذلك محمد ربحان صاحب كتاب تاريخ نسب محمد
وقصة فزع يوم الحساب وقصيدة اسماء الله الحسنى ، والحاج بوي
ماتسون الذي كتب مقطعات تصف رحلته إلى الحج .

وكتب الموريسيكون قصصاً تلمس فيها الطابع العربي وبعضها
عن حياة الأنبياء أو الصحابة أو من القصص الخرافي وحديث الجن وقصص
ألف ليلة ؛ أو قصص الفروسية.وهي على أي حال أشد طرافة وقصة
من الشعر.ومما يلاحظ أن هذا الأدب فقير فقير . ولكنه يمثل المقاومة
التي كانت تعانيها الثقافة العربية الاسلامية لتستمر في العطاء والوجود
وبصورة خاصة في الحفاظ على ما بقي من الدين وهو « الهوية » الوحيدة .

* * *

يبقى في النهاية أمر أخير يتصل بأثر هذه الملحمة العربية الاندلسية
التي نشأت على الطرف الغربي الأقصى من أوروبا . وكان في ذلك
الوقت أقصى الأرض المعروفة !

كانت الاندلس أحد معابر أربعة تسربت منها الثقافة العربية الاسلامية
إلى أوروبا . واحد في أقصى المشرق عبر جبال القفقاس فتحه وعبره مروان
ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين.ولم يلبث أن أغلقه بعد سنوات معدودة
ثاني الخلفاء العباسيين المنصور ، وجعله موقعاً دفاعياً . والثاني عبر
القسطنطينية وقد استعصى طويلاً حوالي ثمانية قرون حتى فتحه محمد

الفتاح العثماني . والثالث عبر صقلية وقد افتتح لمدة قرنين ثم أغلقه النورمان في القرن الخامس / ١١م وإن لم يغلقوا الباب أمام حضارته . والرابع كان الاندلس وكان أطول الجميع عمراً وأثراً مع أنه الأقصى بعداً . ولا بد أن نضيف إلى ذلك مياه البحر المتوسط التي كانت نصفها في الشرق والجنوب والغرب ولمدة عدة قرون مسرحاً للشراع العربي . قبل أن تتغلب عليها الاساطيل الأوروبية منذ القرن الخامس / ١١ م قبيل الحروب الصليبية فتستخدمها للهجوم على البلاد العربية الاسلامية في الغرب وفي الشرق .

ويختلط أثر الاندلس في أوروبا مع أثر الحضارة العربية الاسلامية عامة فيها . لأن الأندلس هي البنت الكبرى لهذه الحضارة . وقد شكلت المركز المتقدم لها على الأرض الأوروبية ذاتها . وإذا أضحى من البديهيات الشائعة بيان الأثر الحضاري العام للعرب في أوروبا فقد يكون من الصعب فصل تأثير الأندلس وحدها فالوشائج أكثر تعقيداً واتصالاً من أن تفصل .

وعلى الرغم من التباعد في اللغة والموازين والقوافي فإننا نجد أمامنا التأثير اللغوي والشعري . ففي اللغة الاسبانية اليوم قرابة خمسة آلاف كلمة من أصل عربي يتصل بعضها بالزراعة والكيمياء والطب والصيدلة والموسيقى والفلك وبعض الحرف والأدوات وبعض أسماء المواقع . وقد تسرب أعداد من هذه الكلمات إلى اللغات الأوروبية الأخرى كما تسربت الأرقام العربية إليها . واستقرت فيها . أما الشعر الاسباني فقد نشأ أول مرة تقليداً لشعر العرب . صوره وقواله وقوافيه انتقلت حتى إلى شعراء الجنوب الفرنسي (بروفانس) عن طريق الصلات التجارية

وتجول الشعراء المنشدين المعروفين بالتروبادور . والشعر الرومانسي ينتسب إلى العرب أكثر مما ينتسب إلى اليونان واللاتين . وقواعد التقفية التي اتبعها الشعر الشعبي الاسباني والبروفانسي وأساليب الصياغة عربية وفي طليعة ذلك الزجل ومقطعات الأغاني. وأوائل شعراء التروبادور استخدموا القوالب الرجزية الاندلسية ذات الاغصان والخرجات (الروندو) وسرى ذلك من بعد إلى انكلترا والمانيا والبرتغال وايطاليا وأزجالها . يظهر ذلك في أغاني الفونسو العاشر وأسقف هيتا خوان رويس في أنشودة العريبات الثلاث وغيرها .

ثم أَدب قصصي شعري شعبي ازدهر في الأندلس العربية وإن لم يسجل ويعترف به . ولكن آثاره بقيت في الشعر القصصي في اسبانيا وفرنسا . وكان موضوعه العام متصلاً بالسخط على الاقطاعيين وبالطابع الفروسي وقصص الحب . أو برواية قصص الأنبياء ! وينبغي أن نلاحظ هنا أن هذه التأثيرات كلها كانت ناجمة عن الاتصالات الحياتية التي تجري في قاع المجتمع بين عناصره المختلفة ،ومن خلال اللغة المشتركة التي يتكلمها،والخليطة من العربية والرومانسية.فأما الطبقة الرسمية المثقفة فكافت لها اللغة الرسمية الفصيحة والشعر الموزون المقفى اللذان كانا لغة السادة وشعرها الرسمي .

ومثل ذلك يقال في القصص فقد كانت بدورها إنتاجاً شعبياً لم يدخل ميدان الأدب الرسمي . ومن القصص الأولى المتأثرة بالأصول العربية كتاب : سلك الكتاب وفيه ٣٣ قصص تدل الدلائل على أنها كتبت أولاً بالعربية ثم ترجمت إلى اللاتينية قبل تقديمها إلى ملك أراغون في مطالع القرن السادس / ١٢ م . وقد ذاع الكتاب وترجم إلى عدة لغات . وذاعت كذلك قصص قليلة ودمنة التي ترجمت مبكرة إلى

أكثر من أربعين لغة . وقصص السندباد ورحلاته على الموج وبعض القصص من الاسرائيليات . هذا إلى أن الباحثين يقرون بديون الكتاب والأدباء الأوائل من الاسبان للأدب العربي الأندلسي كالدون خوان مانويل ، وتورميда . هذا بالإضافة إلى أثر ألف ليلة وليلة التي عرفها الغرب عن طريق الأندلس في الغالب والتي كان لها أثرها الواضح في تكوين الفكر القصصي الاوروبي وإلى قصص الفروسية ، وقصص المعراج . وأخبار الآخرة التي اقتبسها دانتي وصاغ منها جحيمة .

وننتقل من الأدب إلى العلوم الانسانية لنجد أن حركة المقاومة والاستردادالاسبانية رافقها حركة ترجمة ونقل كبرى عن الفكر العربي الأندلسي . وتأثير هذا الفكر كان قد بدأ منذ الفتح في الواقع فحولية البلدة وهي التي وجدت في دير البلدة على حوض نهر ابرو شمال اسبانيا نكشف أنه منذ ما قبل عصرها في القرن الثالث / ٩ م . كان هذا التأثير موجوداً وقد تعزز في ماسمي بالحولية المتنبهة التي كتبت أيضاً أواخر القرن الثالث / ٩ وفيها تاريخ الأندلس الذي اطلع عليه صاحبها في قرطبة وطليطلة والتنبيه بسقوط الحكم العربي سنة ٨٨٣ م . وثم أيضاً الحولية القوطية وهناك اجماع على أن مصادرها عربية .

كل هذا تم عن طريق التعايش والترجمة الشعبية العامة . أما حركة الترجمة الواضحة ، وللعلوم بصورة خاصة ، فقد استهلّت منذ القرن الرابع / ١٠ م بمبادرات خارج اسبانيا أبرزها أعمال قسطنطين الافريقي المتوفى سنة ٤٨٠ / ١٠٨٧ والذي ترجم تحت ظل البابوية كتب الطب . خاصة لأنه خريج مدرسة سالرنو في صقلية أول مدرسة طبية في أوروبا . غير أن سقوط طليطلة سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ بيد قشتالة وهي العاصمة القوطية السابقة التي تشبعت بالحضارة العربية خلال أربعة قرون والتي كان مجتمعها خليطاً واللغة فيها مزدوجة عربية—رومانسية فقد فتح الأبواب على

مصاريعها لدخول الفكر العربي والاندلسي بخاصة إلى الفكر الأوروبي عن طريق الترجمة ، في المراحل الأولى ، إلى اللاتينية ، لغة العلم والتفاهم المشترك في أوروبا .

كانت المبادرات القوية الأولى في هذه المدينة بالذات وكانت الترجمة برعاية من رئيس الأساقفة ريموندو الذي كان كبير مستشاري ملوك قشتالة (فيما بين سنتي ١١٢٦-١١٥١ م / ٥٢٠ - ٥٤٦) فقد لجأ إلى طليطلة في هذه الفترة بعض اليهود الهاربين من الحكم المرابطي وتزمتهم . فاستخدمهم هذا الأسقف في ترجمة بعض النصوص العربية إلى اللاتينية . وبعضها من أصول اغريقية وبعض إسلامي وفيها بعض الكتب . وكان ذلك حدثاً تاريخياً بالنسبة لأوروبا التي كان التعليم فيها قاصراً على الأناشيد الكنسية حتى ذلك الحين .

وقد اتجهت الترجمة بالطبع إلى الأمور العملية كالطب والأفكار الجدلية كالفلسفة ولم نتجه إلى الأدب والشعر لقلة اهتمام المشرفين على الترجمة بهذه الأمور . هذه الجماعة التي تولاه ريموندو عرفت في التاريخ باسم مدرسة المترجمين الطليطليين الذين ترجموا ما بين أواسط القرن ١٢ والقرن ١٣ الكثير من كتب الطب والحساب والفلك والرياضيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي بالإضافة إلى كتب الفلسفة وما وراء الطبيعة والمنطق والسياسة ومنها كتب أرسطو وأفلاطون . وشروح المسلمين عليها ومؤلفات اقليدس وبطليموس وجالينوس وأبقراط عدا كتب الخوارزمي والبتاني والفرغاني وابن سينا وابن رشد والبطروجي والغزالي والزهرائي ومن إليهم . ومن البارزين في إطار هذه المدرسة أسقف شقوية ومن البارزين في الاشراف عليها الملك ألفونسو السابع وأسقف طليطلة خيمينس دي راد (١١٧٠ - ١٢٤٧ م) . وكان يتقن لغات كثيرة منها العربية وقد كتب حولية الطليطلي .

بهذا الشكل ظلت طليطلة إلى مابعد سقوطها بقرون تحمل الطابع العربي وكانت مدرستها للترجمة أهم مركز للدراسات العربية . وقد لحقتها في القرن الثالث عشر مدرسة بالرمو في صقلية . وفي طليطلة ذاتها أيضاً أسست جمعية الوعاظ أول مدرسة للدروس الشرقية في أوروبا سنة ١٢٥٠ بقصد تدريب المبشرين قبل إرسالهم لتبشير المسلمين واليهود . وفيها قبل ذلك ترجم القرآن الكريم في أول ترجمة لاتينية له سنة ١١٤٣ . وإليها كان قصد العلماء من انحاء أوروبا للدراسة . ولم يكن هدف جميع المترجمين والدارسين معرفة العلم ولكن بعضهم إنما كان يدرس التماساً لحجج يقارع بها الاسلام وأهله . وجميع رجال الدين كانوا كذلك وهم جمهرة العلماء والطلاب يومذاك .

ولعل من أهم ما قامت به مدرسة طليطلة بجانب الترجمة هو استخدام اللغة القشتالية (الاسبانية) بدل اللاتينية في تدوين المصنفات ، وذلك في عهد الملك الفونسو العاشر الملقب بالعالم El Sabio والذي دفع بالمدرسة إلى الأمام بالرعاية والمال وشارك بنفسه في أعمالها العلمية . ولم يمتنع بذلك ولكنه أنشأ مركزاً مماثلاً ومنافساً للعمل الثقافي في مدينة مرسية شرقي اسبانيا . عكف فيه على التدريس بعض علماء المسلمين والنصارى واليهود وعلى رأسهم الرقوطي الفيلسوف المسلم . ولم يوفق هذا المركز كثيراً فنقله إلى اشبيلية . وكان من دوافع الملك في خطته العلمية أن أعداداً من المدن العربية الاسلامية سقطت في تلك الفترة في يد قشتالة . وصار نصف رعاياها تقريباً من المسلمين المثقفين ، وصارت المكتبات العربية بما تحويه من كنوز الثقافة تحت أيدي الحكم الجديد . وتوسعت بذلك أعمال الترجمة لتشمل الآداب والتاريخ . وفي عهد الفونسو العالم هذا (أو الحكيم) وضع (التاريخ العام الأول لاسبانيا) . وكتب علم الفلك

وصنعت بأيدي العرب بالطبع الآلات والأجهزة اللازمة له . وكان الملك يصحح النصوص بنفسه . وقد جمع كتاب التاريخ العام عدداً من النصوص التاريخية العربية مع بعض الملاحم الشعرية الشعبية المتصلة بتاريخ اسبانيا الاسلامي ومنها ملحمة (السيد) .

هكذا عند انتهاء القرن الثالث عشر كانت اسبانيا وأوروبا معها قد اتصلا بالعلم والفلسفة العربيين « وأنجزت اسبانيا مهمتها كوسيط في هذا الميدان . وامتدت الطريق الفكرية من أبواب طليطلة شمالاً فقطعت جبال اليرينه ثم سارت متفرجة حتى جازت بروفانس وثنيا الألب ونفذت منهما إلى اللورين فألمانيا فأوروبا الوسطى وعبرت بحر المانش واتصلت بانكلترا » . ووجدت بهذا الشكل مراكز ثقافية جديدة في جنوب فرنسا تعتمد على الثقافة العربية أهمها مرسيليا وتولوز ومونبيلييه . كما وجد في شرقي فرنسا ديركلوني الذي لعب أهم الأدوار في إثارة الحروب الصليبية بجانب دوره في نهضة القرن الثاني عشر وإصلاح الكنيسة . وأضحت منطقة اللورين بذلك أخصب تربة لنمو العلوم العربية في الغرب .

ومع كل هذا فقد كانت وفود الدارسين الأوروبيين لا تنقطع عن المدن العربية الاندلسية ، ومن تلاميذها كان عدد من البابوات والأساقفة ورجال العلم والإدارة في أوروبا . غير أنه ما من شك في ان اكبر الأثر للفكر الاندلسي فيها بعد الطب هو الفلسفة . ومن نجومها المعروفين ابن باجة وابن طفيل صاحب حي بن يقظان . أما نجمها الأكبر فهو ابن رشد (المتوفى سنة ٥٩٥ / ١١٩٨) والذي كان موسوعة في الفقه والطب والفلسفة . وقد تركت الرشدية آثارها في الفكر الأوروبي لقرون عديدة تمتد حتى القرن السابع عشر . فقد أخذ عنها المقارنة والتوفيق بين الايمان

والعقل ، بين الدين والعلم . وكانت هذه المعضلة في التوفيق ما بين أرسطو والكتاب المقدس من أشد ما واجه رجال الدين في أوروبا تعقيداً . وكان تأثير الرشدية ومدرستها حاسماً رغم معارضة المدرسة الدومينيكانية له ولآرائه . بعد أن تبنتها الجامعات والجماعة الفرنسيسكانية . وبلغ من شهرة ابن رشد في الغرب أن أعطي لقب المعلم الثاني .

ويتصل بالآفاق الفلسفي أفق التصوف وفي هذا المجال لا يجارى ابن عربي ومدرسته الاشراقية في أثرهما لافي الفرس والترك فحسب ولكن في مدرسة الفلسفة النصرانية في العصور الوسطى أي الأوغوسطينية . وبالذات في عدد من رجالها أمثال سكوت وبيكون ولل . وقد يجاري ابن عربي متصوف أندلسي آخر هو ابن سبعين ولكنه أقل شهرة منه ، ويعرف لدى المتصوفين بقطب الدين . ويتصل بالآفاق نفسه ، أفق الفلسفة ، أثر الموسيقى النظرية . وقد كان ازدهار الموسيقى والغناء في الاندلس سبباً في تسرب هذين الفنين إلى الغرب . وإذا كان الغناء محدود الأثر إلا لدى الشعراء المغنين (التروبادور) وفي الزجل الشعبي ، وكان المنتشر من هذا الغناء في الجنوب الغربي من أوروبا كلها في القرن الثالث عشر مشتقاً من منابع أندلسية ظل أثرها قروناً بعد سقوط غرناطة ، فان أبحاث الموسيقى النظرية العلمية والتطبيقية كان لها أيضاً سوقها في الغرب لدى الجماعات الدينية والمثقفة . وهناك رسالة فلسفية في الموسيقى لابن باجة الفيلسوف (المتوفى سنة ٥٣٣ / ١١٣٨) والذي برز في اشبيلية وفاس كانت تعدل عند الغربيين من حيث القيمة الفكرية رسالة الفارابي الشرقية في الموسيقى . وقد انتقلت مع الفلسفة آثار عديدة حول النظريات الموسيقية منها بحث ابن سبعين الفيلسوف (المتوفى سنة ٦٦٧ / ١٢٦٩) في كتاب الأدوار حول تناسب الأنغام . كما أن رسالة الخوارزمي

في الرياضيات فيها قسم عن الموسيقى وقد ترجمت . وكانت من اقدم الرسائل التي أدخلت الموسيقى العربية إلى العالم اللاتيني . عدا ما دخل بعدها من أبحاث ابن سينا والفارابي والكندي في هذا المجال . وقد ترجمت بخاصة في طليطلة . وأخذ الأوروبيون جانباً من الموسيقى القياسية هو الايقاع عن الفيلسوف الكندي .

بعد هذا المجد الفلسفي الفكري للأندلس في أوروبا يبقى من الأمور الهامة أن نشير إلى التأثيرات الأخرى التي بقيت في الحياة العملية للناس فقد بنى العرب المسلمون في الأندلس أو أعادوا بناء ٤٤ مدينة وحصناً ضخماً معظمها باق. وهو رقم يعدل ما أقاموه في الشام أو في فارس وايران - وإن بنوا ضعفه في المغرب - هذا الانجاز الحضاري الضخم من المؤسف ألا يشير إليه الباحثون وإلى معناه الكبير في التطور المدني . ونكتفي به فلا نذكر التأثيرات الأخرى التي بقيت في الحياة العملية للناس كالورق والبوصلة والأدوات المعدنية والاسطرلاب والاسلحة وآثارها في العلم والعمل، وورق اللعب والشطرنج وما إليها، والآلات الموسيقية كالقيثارة والعود والبوق والطبل والرباب، ثم النواير وأصناف الفواكه وغيرها . هذا إلى بناء الحمامات في البيوت وأنواع اللباس ، والعناية بالنوافير والبرك وألوان الطعام وتحجب المرأة بالاضافة إلى التمازج العرقي الذي أوجد طبقة المولدين . . وإلى استخدام اللغتين العربية والاسبانية معاً مختلطتين في البيت والسوق . . . إن تأثيرات التعايش لا تقف عند حد . وقد كان التسامح الاسلامي يفتح لها جميع الأبواب .

* * *

. . . وكانت الأندلس حلماً حلمت به الأرض الاسبانية فترة طويلة . ثم غاب الحلم ولكن بمأساة مفعجة . ما كان أحلى ذلك الحلم لولا هذه المأساة .

الفهرس

٣	التأريخ السابق والفتح
٢٩	من الولاية إلى الخلافة
٧٥	ملوك الطوائف والعهد المغربي
١٢٦	غرناطة . . الفصل الأخير
١٤٦	النهاية والاصداء

* * *